INSTITUT DU MONDE ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

King Faisal PRIZE

جان سوفاجيه

JEAN SAUVAGET

فاديا فؤاد منصف

100 كتاب وكتاب

9

جان سوفاجيه

الكتاب : جان سوفاجيه مستشرق فرنسي
المؤلف : **الدكتورة فاديا فؤاد منصف**
الطبعة : الأولى 2019
عدد الصفحات : 144
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2019MO1525
الترقيم الدولي : 978-9920-677-03-5

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT DU MONDE ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal PRIZE

جان سوفاجيه

مستشرق فرنسي

Jean Sauvaget
1901 – 1950

الدكتورة فاديا فؤاد منصف

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

المحتويات

عتبة..... 7

مقدمة..... 9

الفصل الأول : سيرة حياة جان سوفاجيه وتكوينه المعرفي وأعماله وكتبه..... 11

الفصل الثاني : مختارات من كتاباته الفكرية والإبداعية.. 75

الفصل الثالث : جان سوفاجيه في عيون معاصريه..... 115

الفصل الرابع : ثبت ببليوغرافي بأهم أعماله..... 139

عتبـة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزاً مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئه الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

عبد العزيز السبيل معجب الزهراني

مقدمة

حينما كلفتني لجنة "مئة كتاب وكتاب" بالكتابة عن المستشرق جان سوفاجيه، فقد سعدت بذلك حيث كنت قد اطلعت على سيرته في سنين سابقة، وعرفت آنذاك أنه عاش في سورية مدة طويلة خلال الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان.

واستعنت بمكتبة جامعة اليرموك في إربد ومكتبة الجامعة الأردنية في عمان، حيث وجدت معظم مؤلفات جان سوفاجيه فيهما. وكنت قد صورت نسخة كاملة من مجلدي التكريم التذكاري لجان سوفاجيه من مكتبة جامعة القديس يوسف ببيروت. وأصبح بإمكاني أن أقدم دراسة وافية عن هذا المستشرق، المميز بغزارة إنتاجه، وجِدَّة منهجه في دراسة التاريخ العربي، ورشاقة أسلوبه في الكتابة، وقدرته الفائقة على نقد المصادر نقداً علمياً نزيهاً، وبيان نقاط القوة والضعف فيها، وأهمية المعلومات التي تحتويها بالنسبة للموضوع التاريخي الذي يتناوله. كما اتسم سوفاجيه أيضاً بدقة ملاحظاته، وحذره الشديد في قراءة النصوص التاريخية، واستخلاص الحقائق منها. وساهم مساهمة فعالة في دراسة تاريخ بلاد الشام في العهود الأموية والسلجوقية والمملوكية والعثمانية، وكشف في مؤلفاته وبحوثه ومقالاته

وتقاريره عن جوانب مهملة لدى المؤرخين العرب المشاهير، وتناول موضوعات وجوانب من الحضارة الإسلامية ومن الصروح الأثرية والتاريخية في المشرق العربي بعامة وبلاد الشام بخاصة.

آمل بهذه الدراسة أن أكون قد ساهمت في تعريف القارئ العربي بمستشرق مرموق استطاع خلال حياته القصيرة، التي لم تبلغ الخمسين عاماً أن يقدم (82) كتاباً وبحثاً منشوراً و(75) تقريراً منشوراً، وعرض منهجه في الكتابة التاريخية.

د. فاديا فؤاد منصف

إربد – الأردن في 15 كانون الأول/ ديسمبر 2018

الفصل الأول

سيرة حياة جان سوفاجيه
وتكوينه المعرفي وأعماله وكتبه

بدأت حركة الاستشراق، التي ترمي إلى دراسة الشرق أمماً وشعوباً تاريخاً ولغات وثقافات وحضارات، في فرنسا في عهد ملكها فرانسوا الأول François 1er (1515–1560م)، الذي أنشأ المعهد الملكي Collège Royal لمنافسة جامعة السوربون التابعة للكنيسة الكاثوليكية، التي كانت تعد معقلاً للجمود والتزمت الثقافي. ووجّه المعهد الجديد جلّ عنايته إلى اللغة العربية والمخطوطات العربية، فكانت بداية حركة الاستعراب الفرنسية. وتعزى بداية هذه الحركة إلى المستشرق الفرنسي غيوم بوستل Guillaume Postel (1510–1581م) الذي شارك في بعثة دبلوماسية إلى اسطنبول، عاد بعدها إلى باريس، ودرّس اللغات العربية واليونانية والعبرية في المعهد الملكي، ثم عاد إلى الشرق لبعض الوقت. ودعا في مؤلفاته إلى التسامح بين المسيحيين والمسلمين.

وازدهرت حركة الاستشراق في أوروبا بعامة وفي فرنسا بخاصة بعد اختراع الطباعة وانتشارها في القرن السادس عشر الميلادي. وشعر المستشرقون بالحاجة الماسة إلى وضع قواعد لتحقيق المخطوطات بعامة والمخطوطات العربية بخاصة، الأدبية منها والعلمية، قبل نشرها وترجمتها إلى اللغة الفرنسية. وكان الإلمام باللغة العربية مفتاح المعرفة بالعرب وبتاريخهم وحضارتهم العربية الإسلامية. وسعى القناصل والدبلوماسيون والتجار والرحالة والعلماء والجواسيس والرهبان والمبشرون الكاثوليك واللاتين والمستعربون الفرنسيون إلى جمع المخطوطات العربية. وتجمعت هذه المخطوطات في مكتبات الجامعات الفرنسية ومعاهدها المختصة بالدراسات العربية، وفي المكتبة الوطنية في باريس التي تعد أهم خزانة لهذه المخطوطات في فرنسا.

وكان من أشهر جامعي هذه المخطوطات وزير الملك لويس الرابع عشر جان بابتست كولبير Jean-Baptiste Colbert (1619–1683م)، والمستشرق الفرنسي أنطوان غالان Antoine Galland (1646–1715)، الذي أقام في الشرق بين سنتي 1676 و1679، مما أهّله للتعيين أستاذاً في معهد فرنسا Collège de France لتدريس اللغة العربية، وألف العديد من الكتب؛ منها يوميات Journal رحلته 1672– 1680م، وقصة موت السلطان عثمان المنشورة سنة 1676م، ومبادئ الاستشراق، وترجم معاني

القرآن الكريم وقصص ألف ليلة وليلة التي نشرت في (12) مجلداً بين سنتي 1704 و1717م.

ومن جامعي هذه المخطوطات الرحالة الفرنسي جان دو تيفينو Jean de Thévenot الذي زار البلاد العربية وإيران، والدبلوماسي الجيولوجي الفرنسي بنوا دو ماييه Benoit de Maillet (1656-1738م) قنصل فرنسا في مصر، ومؤلف كتاب "وصف مصر Description de l'Egypte" الذي صدر سنة 1735م[1].

اكتسب المستعربون الفرنسيون خبرة جيدة في تحقيق المخطوطات العربية، وفي دراسة تاريخ البلاد العربية في العهود الإسلامية المختلفة، منذ صدر الإسلام وحتى النصف الأول من القرن العشرين، وكان جان سوفاجيه Jean Sauvaget من أبرزهم.

ولـد جـان سوفاجيـه في بلدة نيور Niort في 27 كانون الثاني/يناير 1901. وأكمل دراسته الابتدائية والثانوية في بلدته.

(1) ريجيس بلاشير وجان سوفاجيه، قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها، ترجمة محمود المقداد، بيروت، دار الفكر المعاصر، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1988، (مقدمة المترجم)، ص 9- 13، وLe Petit Robert des noms propres, Paris, 2008، (انظر الأسماء الفرنسية). ومحمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، عالم المعرفة، عدد 167، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر/ تشرين الثاني 1992، ص 53- 70.

فقد أمه وهو في السابعة من عمره. وكان أصغر إخوته. خضع لنظام قاس فرضه عليه أب مدرك لواجباته. التحق بمعهد اللغات الشرقية الحية Ecole des Langues Orientales Vivantes التابع لجامعة السوربون في باريس. ونال شهادة الإجازة (ليسانس Licence) في اللغة العربية. وأشرف على دراسته المستشرق الفرنسي موريس غودفروا ديمومبين Maurice Gaudefroy Demombynes.

عمل بعد تخرجه في المعهد الفرنسي بدمشق L'Institut Français de Damas سنة 1924. وكان المعهد قد أنشئ حديثاً آنذاك، فعمل فيه عضواً مدة ثلاث عشرة سنة، وبدءاً من سنة 1929 عُيِّن أميناً عاماً له. ولم يغادر سورية إلا سنة 1937، حينما انتخب مديراً لدراسات تاريخ الشرق الإسلامي في المعهد التطبيقي للدراسات العليا L'Ecole Pratique des Hautes Etudes، وهو منصب خلق له. وتزوج في هذه الأثناء، وعاش حياة هانئة، وأنجب عدداً من الأولاد.

جمع جان سوفاجيه، أثناء إقامته في سورية، مادة وثائقية ضخمة، كانت زاداً كافياً له لتأليف العديد من الكتب والأبحاث العلمية. وقد وضع آنذاك الأسس لتطوره العلمي اللاحق. وكان قد تجول في جميع أنحاء سورية، وزار تركيا وفلسطين والعراق وإيران مراراً. وجمع ملاحظات قيمة عن الأبنية التاريخية،

ونسخاً من النقوش التي حفرت على واجهات تلك الأبنية من مساجد وقصور وقلاع وقبور وأضرحة. وخزنها من أجل دراستها في المستقبل. وقد أفاد من إقامته الطويلة في سورية: إذ عرف البلاد وجغرافيتها ومواقعها المختلفة جداً، وعرف الناس، وحفظت عيناه رؤية المناظر الطبيعية التي أثارته هنا وهناك، بعبارات مؤثرة ورصينة. وكان جان سوفاجيه مصوراً ماهراً، جمع مجموعة من الصور فريدة من نوعها للصروح والمباني التاريخية والمواقع والناس، وعمل لها تصنيفاً متقناً غرف منه طوال حياته. تعلق هذا المستشرق الفرنسي بسورية وأحبها، وأقام علاقات ودية مع العديد من سكانها[1].

يعترف رفاق سوفاجيه وأساتذته وتلاميذه من المستشرقين الفرنسيين بمزاياه الشخصية التي ساعدته كثيراً على القيام بنجاح باهر في مهمة التعليم التي تولاها في المعهد التطبيقي للدراسات العليا، وأكسبه ذلك تقدير زملائه ومحبتهم، واحترام تلاميذه الفرنسيين والأجانب وثقتهم.

---

(1) Louis Robert, Jean Sauvaget (1901-1950) dans "Mémorial Jean Sauvaget", Damas, Institut Français de Damas, 1954, Tome I, pp. XV- XVII. Henri Laoust, Avant-Propos, dans "Mémorial Jean Sauvaget", Tome I, pp. IX- XI, et Régis Blachère, Jean Sauvaget 1901- 1950, dans "Ecole Pratique des hautes- études", pp. 12- 13.

في هذه البيئة بدأ سوفاجيه جهوده العلمية والتدريسية. وشعر بحاجة المستمعين لدروسه ومحاضراته وضرورتها، فكانت دروسه ومناقشاته مع الطلبة تجربة مفيدة له في تأليف الكتب التي يعدها، وكتابة الأبحاث العلمية والمقالات التي ينشرها.

وخلال عمله في المعهد التطبيقي للدراسات العليا بباريس بين سنتي 1937 و1949، ألقى محاضرات في قسم العلوم التاريخية والفلسفية Section des Sciences Historiques et Philosophiques عن تاريخ الشرق الإسلامي في العصر الوسيط.

وفي سنة 1946 بلغ جان سوفاجيه الخامسة والأربعين من عمره، وانتخب أستاذاً في معهد فرنسا Collège de France، واحتل كرسي الأستاذ بول بيليو Paul Pelliot "كرسي تاريخ العالم العربي Histoire du monde arabe" في المعهد المذكور، بناء على تنسيب من الأستاذ بيليو. وألقى أولى محاضراته في هذا المعهد (محاضرة الافتتاح) في 15 آذار/ مارس 1946 تحت عنوان "كيف ندرس تاريخ العالم العربي Comment étudier l'histoire du monde arabe"[1]. وألقى سوفاجيه اثنتي عشرة محاضرة في معهد فرنسا بين سنتي 1946 و1949 تحت

(1) Louis Robert, Jean Sauvaget dans Mémorial Jean Sauvaget, Damas, Institut Français de Damas, 1954, Tome I, p. 166.

عنوان "مسائل الاحتفال: القصر والمسجد في عهد الأمويين Questions de Cérémonial: Le Palais et la Mosquée Sous les Omeyyades".

لم تطل فرحة جان سوفاجيه بالموقع الأكاديمي الرفيع الذي احتله سنة 1946، فقدْ فَقَدَ رفيقة عمره، بعد أيام من بداية عمله في معهد فرنسا. وكان لذلك أثره العميق في حياته. إذ كانت زوجته معروفة بإخلاصها وتكريس حياتها لأسرتها. وعاش سوفاجيه ثلاث سنوات ساعياً لإنقاذ أسرته المؤلفة من خمسة أطفال، وهو موزع بينهم وبين واجباته الأكاديمية[1].

أصبح جان سوفاجيه بعد الحرب العالمية الثانية مستشرقاً مرموقاً، واتسعت سمعته العلمية عالمياً كمؤرخ ومستشرق. وسطع نجمه في مؤتمر المستشرقين الذي عقد في باريس سنة 1948. وكثرت مهامه، وتحمل العبء الملقى عليه بشعور قوي نحو الواجب. وغدا محرراً للمجلة الآسيوية Journal Asiatique، ومساعداً لمدير القسم الشرقي لمؤرخي الحروب الصليبية في أكاديمية النقوش Académie des Inscriptions. وعمل معاوناً في معرض المخطوطات في المكتبة الوطنية بباريس La Bibliothèque Nationale، حيث أمضى أياماً يدرس أعمال المؤرخين العرب، ويشارك في المساعدة بمشاريع المستشرقين في المطبعة الوطنية

(1) Ibid., p. 51-52, et Régis Blachère, op. cit, p. 15

L'Imprimerie Nationale بباريس، حيث قدّر كثيرون تفانيه المفعم بالحيوية في عمله. وكان دوماً متأهباً لأداء الخدمة العامة، إلى جانب تعليمه اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية الحية وفي جامعة السوربون، وتدريس تاريخ الفنون الإسلامية في معهد اللوفر Ecole du Louvre في باريس، وجغرافية الشرق الأدنى وتاريخه في معهد اللغات الشرقية الحية. وكان له دور بارز ومهم في الجمعية الآسيوية La Société Asiatique[1].

ونشر كراساً حول إعادة تنظيم الدراسات الاستشراقية في بريطانيا بالاشتراك مع بول ديميفيل Paul Demiéville في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1949، بعد أن دعي إلى اجتماع جمعية المستشرقين البريطانيين في درم Durham في تموز/ يوليو 1949[2].

كان لجان سوفاجيه نشاطات واهتمامات متعددة: فهو مستعرب وكاتب نصوص ومترجم ودارس للنقوش الأثرية، وعالم في الآثار. هذا العمل المتنوع يلتقي في وحدة عميقة، ويسيطر عليه كله اهتمامه بالتاريخ. ويبدو هذا واضحاً لمن يقرأ كتبه ومقالاته وأبحاثه.

وفي سنواته الأخيرة زار تركيا مراراً، بحثاً عن السلاجقة وتاريخهم، ورغبة في الاطلاع على الأرشيف العثماني في اسطنبول

(1) Louis Robert, Jean Sauvaget, 1901- 1950, op. cit., p. XVIII
(2) Ibid., pp. XVIII- XIX

الذي افتتح حديثاً. وكانت رحلته إلى العاصمة العثمانية في أيلول/سبتمبر 1949 ـ مليئة بالمشاريع والوعود. وفي تركيا اشتد عليه المرض في كامبو Cambo، وأجريت له عملية جراحية في الرئة، توفي على أثرها في الخامس من آذار/ مارس 1950[1].

أعماله ودروسه:

1- أعماله في المعهد التطبيقي للدراسات العليا بباريس بين سنتي 1937 و1949 :

ألقى جان سوفاجيه محاضرات في قسم العلوم التاريخية والفلسفية، عن تاريخ الشرق الإسلامي في العصر الوسيط.

ففي السنة الدراسية 1937-1938، تناول في محاضراته "تاريخ بيروت" لصالح بن يحيى، ودراسة البريد على الخيل في دولة المماليك، بينما تناول في السنة الدراسية التالية 1938 -1939، تاريخ سورية في عهد الخلفاء الأمويين. وطبّق في محاضراته هذه منهجاً جديداً، هو الإفادة من النقوش العربية الموجودة على جدران المساجد والقلاع والقصور والأضرحة والقبور، كمصدر دقيق ورئيسي في دراسة التاريخ الإسلامي. وألقى في السنة الدراسية 1939-1940 محاضرة حول المنشآت

(1) Ibid., pp. XIX- XX

الزراعيـة الأمويـة في سوريـــة. وعـرض في السنة التي تلتها 1940-1941 في محاضرته الأولى جذور النزاع بين الأمويين وآل بيت النبي (ﷺ) العباسيين والعلويين (نسبة إلى أبناء وأحفاد الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب)، والثورة العباسية التي أطاحت بالأسرة الأموية الحاكمة، وأفضت إلى وصول بني العباس بن عبد المطلب إلى الخلافة والحكم. ودارت محاضرته الثانية في هذه السنة حول سجلات الوقف الإسلامي كمصدر لدراسة تاريخ المؤسسات والتاريخ الاقتصادي والطبوغرافيا التاريخية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية[1].

وألقى سوفاجيه محاضرتين في السنة الدراسية 1941-1942: الأولى بعنوان "مدخل لتاريخ الإسلام Introduction à l'histoire de l'Islam"، ركز فيها على المصادر والمراجع التاريخية. وخصص المحاضرة الثانية لتاريخ الملك الظاهر بيبرس (1260-1277م). وناقش ترجمة حياة بيبرس التي كتبها وزيره ابن عبد الظاهر، الموجودة مخطوطة في المتحف البريطاني بلندن، ومخطوطة مختصرة في المكتبة الوطنية بباريس. أما في السنة الدراسية 1942-1943، فقد بدأ سوفاجيه محاضرته الأولى بعنوان "مدخل إلى تاريخ سورية الإسلامية Introduction à

(1) Mémorial Jean Sauvaget, Damas, Institut Français de Damas, 1954, Tome I, pp. 31-40.

l'histoire de la Syrie musulmane". وكان عنوان محاضرته الثانية "دراسة المؤسسات الإدارية للمماليك L'étude des institutions administratives des Mamelouks". وفي السنة الدراسية 1943-1944، ألقى سوفاجيه محاضرته الأولى عن الأتراك منذ بداية تاريخهم في منغوليا في القرن السابع الميلادي حتى وفاة السلطان سليمان القانوني سنة 1566م، الذي يمثل أوج توسع الإمبراطورية العثمانية. وخصص المحاضرة الثانية لدراسة المسجد النبوي في المدينة المنورة، الذي يضم ضريح النبي محمد (ﷺ). وركز على إعادة بنائه بأمر من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، ووسع محاضرته هذه فيما بعد حتى صدرت في كتاب في باريس سنة 1947. وفي السنة الدراسية 1944-1945، حدّد المستشرقون الشباب موضوع محاضرة أستاذهم سوفاجيه، وهو العمل على وضع دليل منهجي للنقوش العربية. وتحدث سوفاجيه في محاضرته هذه عن الخط العربي وأشكاله عبر الحقب الزمنية المختلفة حتى العهد الفاطمي. ودارت محاضرته الثانية في هذه السنة الدراسية حول شرح مقاطع من مخطوط "تاريخ دمشق" لابن القلانسي، الذي يحتوي على تاريخ سورية في العهد الفاطمي.

واستهدف سوفاجيه في محاضرته الأولى من السنة الدراسية 1945-1946 تعريف المستعربين الجدد من تلامذته

بالمبادئ الضرورية لتحقيق المخطوطات العربية، والمشكلات التي تواجه المحققين والوسائل اللازمة لحلها. وعرض عليهم مخطوطين غير منشورين من اسطنبول، لعز الدين بن شداد "الأعلاق الخطيرة" للتدريب. أما محاضرته الثانية، فقد احتوت على تمارين تطبيقية لدراسة النقوش العربية.

وألقى سوفاجيه في السنة الدراسية 1946-1947 محاضرتين في النصف الأول من السنة: الأولى حول أرشيف القضاء الإسلامي، والثانية حول تنظيم الأصناف (النقابات) والحسبة (شرطة الأسواق). وقضى طلبته الربع الثالث من تلك السنة في تونس.

وفي السنة الدراسية 1947-1948 راجع سوفاجيه مع طلبته رحلة ابن بطوطة وترجمها إلى الفرنسية في المحاضرة الأولى، بينما دارت المحاضرة الثانية حول تعريف الطلبة بالمنهج المتبع في البحث التاريخي وتاريخ النصوص من أجل تصنيف المخطوطات العربية. وتمت عملية التطبيق على مجموعات مخطوطات المعهد الوطني للغات الشرقية الحية والمكتبة الوطنية بباريس.

وفي السنة الدراسية 1948-1949 كان موضوع المحاضرة الأولى لسوفاجيه دراسة نصوص نقشية من شبه جزيرة العرب، ووصف المقدسي لها ومنهجه ومقارنته بالمصادر الأخرى. ودارت المحاضرة الثانية حول تاريخ شبه جزيرة العرب قبل

الإسلام، وتاريخها الإسلامي من البداية حتى وصول الأتراك السلاجقة إلى الحكم[1].

2- محاضراته في معهد فرنسا 1946- 1949

ألقى جان سوفاجيه، بمناسبة انتخابه أستاذاً في معهد فرنسا سنة 1946، أولى محاضراته في هذا المعهد (محاضرة الافتتاح) في 15 آذار/ مارس من تلك السنة. وكان عنوانها "كيف ندرس تاريخ العالم العربي Comment étudier l'histoire du monde arabe". وقد بيّن في محاضرته هذه بوضوح وبدقة كيف يعلّم دروسه ويعدّ أبحاثه. وأوجز فيها أساليبه وميادين دراسته الأثيرة على نفسه. وقد جاء فيها: "نعتبر ما يتصل بتاريخ العالم العربي كل دراسة لمختلف جوانب الحضارات الشرقية التي نجدها في اللغة العربية، أداة التعبير المعتادة. وأفهم من العرب عرب الشمال، مستبعداً لغة عرب الجنوب التي تنتسب إلى اللغات السامية الجنوبية، التي تقع خارج نطاق عملنا. والمجال بتعريفه هكذا لا علاقة له بالوضع اللغوي الحالي في العالم الإسلامي. وهو متغير بصورة جوهرية، من حيث الاهتمام بالزمن والمكان وبعداهما، وحسب الظروف التي يقدمها الوسط التاريخي لانتشار اللغة العربية واستعمالها كلغة حضارة"[2].

---

(1) Ibid., pp. 40-49

(2) Louis Robert, Jean Sauvaget dans "Mémorial Jean Sauvaget", Damas, Institut Français de Damas, 1954, Tome I, p. 166. (Jean =

ويقول أيضاً في محاضرته هذه: "ولكن مع الفتوحات الإسلامية ارتقت اللغة العربية إلى مستوى اللغة الرسمية من طرف إلى آخر من العالم الإسلامي، وأثرت هذه اللغة في ثقافات الأمم التي خضعت للعرب، وامتد انتشارها من آسيا الوسطى إلى المحيط الأطلسي، وشملت إمبراطورية الخلفاء الأمويين والعباسيين الموحدة. ولم تنافسها أي لغة أخرى للثقافة، باعتبارها لغة الوحي الإلهي والطبقة الحاكمة. وبقيت لغات الشعوب الأخرى المحكية لهجات محلية بسيطة"[1].

ويواصل سوفاجيه حديثه عن اللغة العربية: "وبدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي، نجد الشعوب الجديدة في كل مكان قد أمسكت بيديها المصير السياسي للإسلام، دون التخلي عن اللغة العربية وعن مكانتها. فقد كان البربر في الغرب عاجزين عن تقديم لغة مكتوبة. ولكن حتى في الشرق، حيث أدخل الفرس والترك مصطلحاتهم القومية في اللغة الرسمية للدول التي أنشؤوها. لم يستطع هؤلاء جميعاً تجاوز اللغة العربية التي بقيت الأساس لكل ثقافة دينية، وبالتالي لكل ثقافة فكرية، ووسيلة التعبير العادية لكل الأفكار المجردة، والمصدر لكل

Sauvaget, Comment étudier l'histoire du monde arabe; Leçon = d'ouverture lue au Collège de France le 15 Mars 1946).

(1) Ibid., p. 167

الكلمات الفنية، نتيجة النشاط العلمي الكثيف للحقبة السابقة، والتقليد الإداري الطويل الأمد"[1].

وأشار سوفاجيه في هذه المحاضرة المهمة إلى تدني مستوى اللغة العربية منذ سيطر الأتراك السلاجقة على الحكم، وطوال العصر المملوكي في مصر وبلاد الشام، وحتى مجيء الأتراك العثمانيين في مطلع القرن السادس عشر الميلادي. ويقول في هذا الصدد: "مع العثمانيين تخلت العربية عن سيطرتها على الإدارة، دون أن يتم إحلال التركية محلها تماماً. بقيت العربية لغة العلوم الشرعية حتى في الأناضول، ولغة الوثائق الشرعية (الفتاوى وسجلات المحاكم الشرعية والأوقاف)[2].

ذكر سوفاجيه، في المحاضرة ذاتها، ضخامة الأعمال والمؤلفات التي أنجزها المستشرقون عن حضارة الإسلام في مدى قرن ونصف قرن من الزمن. وقال عنها: "وهذه الأعمال لا تمثل إلا إنجازاً محدوداً، كما أن الكثير منها قد تجاوزه العلم اليوم ولم يعد مستعملاً"[3]. وانتقد أعمالهم نقداً علمياً صارماً. ونقد المصادر العربية التي اعتمد عليها هؤلاء المستشرقون. وأشاد ببعض المصادر التي أهملوها، مثلما قدّر عالياً أهمية النقوش العربية التي اعتبرها وثائق أصلية دقيقة.

(1) Ibid., pp. 167-168
(2) Ibid., p. 169
(3) Ibid., p. 170

بيَّن سوفاجيه في محاضرة الافتتاح هذه الحقب الزمنية الثلاث في سورية التي سيعنى بدراستها؛ وهي: الحقبة الأموية (العصر الذهبي للعروبة حسب تعبيره)، والحقبة السلجوقية التي تبدأ في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، والحقبة العثمانية التي تبدأ في سورية بمطلع القرن السادس عشر الميلادي، وتنتهي بنهاية الحرب العالمية الأولى. يقول في هذا الاتجاه: "وهكذا بتركيز أبحاثنا على سورية نأمل التوغل في أعماق تاريخ هذه الحقب الرئيسية التي نحتفظ بها بالفعالية القصوى وأقل الجهد، لأننا سنفيد من التوثيق الأصيل الذي سنزوَّد به، وهو الأغنى مما في جميع البلاد الأخرى. وسنحدد المصادر الأدبية التي سنطّلع عليها ونخضعها للنقد مثلما نخضع عدداً من المؤلفات التي تعد أدلة مؤكدة"[1].

واختتم هذه المحاضرة بالعبارات التالية: "ولهذا، بالاقتصار على سورية، وتفضيلها على غيرها، وإيضاح عظمة وأصالة الجهل بدورها التاريخي، لديّ شعور قوي بالعمل في المهمة التي كلفت نفسي بها، وليس باتباع الصدفة العمياء التي جعلتني أقيم فيها طويلاً. ولن أكون أقل سعادة إذا استطعت تبرئة ذمتي من الدَّيْن الذي التزمت به نحو هذه البلاد، مقابل الكرم الذي لقيته فيها خلال عدد من السنين، ومقابل المحبة

(1) Ibid., p. 185

التي أحاطوني بها"[1]. والمقصود بسورية لديه بلاد الشام التي تشمل سورية الحالية ولبنان وفلسطين والأردن.

ألقى سوفاجيه اثنتي عشرة محاضرة في معهد فرنسا، بالإضافـــة إلى محاضرة الافتتاح الآنفة الذكر بين سنتي 1946 و1949 تحت عنوان "مسائل الاحتفال: القصر والمسجد في عهد الأمويين"؛ ففي السنة الدراسية 1946-1947، خصصت المحاضرة الأولى التي ألقيت بعد محاضرة الافتتاح في معهد فرنسا، لدراسة نص عربي تناوله المستشرقون رنودو Rénaudot سنة 1817، ورينو Reinaud سنة 1845، ودوفيران de Ferrand سنة 1913 وسنة 1922، بالدراسة. وهذا النص هو مخطوط بعنوان "تقرير عن الصين والهند Relation de la Chine et de l'Inde". ويعتقد أنه ألف سنة 237هـ/851م، ولكن هذا التاريخ غير مؤكد. وهو مجهول المؤلف، ومجزأ إلى قطع. يدور حول الهند وإندونيسيا والهند الصينية والصين، وفيه معلومات غزيرة عنها، ذات طابع إثنوغرافي وجغرافي، تفتقر إلى المصداقية الكبيرة، وتدور حول العلاقات التجارية بين منطقة الخليج الفارسي والشرق الأقصى وأفريقيا.

أما محاضرته الثانية التي ألقاها سوفاجيه في السنة نفسها،

---

(1) Ibid., p. 186

فكانت بعنوان "مدخل لتاريخ دمشق Introduction à l'histoire de Damas"، تناول فيها تاريخ مدينة دمشق منذ نشأتها الأولى حتى الفتح العربي. وعرض مخطط المدينة بالاستناد إلى بقايا آثارها والنصوص الأدبية المتوافرة، ومقارنتها بالمدن القديمة الأخرى في سورية. وتوصل إلى إعادة تصور للمدينة مختلف عما توصل إليه المستشرقان الألمانيان فاتسنغر Watzinger وفولتسنغر Wulzinger، مستفيداً من الوثائق العلمية الأثرية غير المنشورة والمصادر العربية. ونشر نتائج بحوثه في مجلة "سورية Syria" الصادرة عن المفوضية السامية الفرنسية في بيروت.

وفي السنة الدراسية 1947–1948، كانت محاضرة سوفاجيه الأولى في معهد فرنسا "دراسة الصروح الأموية غير المنشورة أو المكتشفة حديثاً". رأى سوفاجيه أن المصادر التاريخية والأدبية العربية حول الموضوع غير كافية، ولا بد من دراسة القصور الأموية في سورية لاستكمال دراسة هذه الصروح. انطلق من مجموعة من القصور الأموية التي اكتشفت حديثاً، أي في مطلع القرن العشرين؛ وهي: رصافة هشام بن عبد الملك، وقصر الحائر، وعنجر، وجبل سيس، ووجد سوفاجيه أن هذه الصروح الأموية لا تختلف في خصائصها العمرانية عن الصروح المماثلة المعروفة من زمن طويل؛ مثل: قصر عمرة،

وخربة البيضاء، وقصر الحلاَّبات. رأى سوفاجيه أن هذه الصروح الأموية العديدة الموزعة على امتداد البادية السورية الداخلية هي مراكز واسعة للزراعة، وهي استمرار لنمط بيزنطي معروف، وسكان هذه المراكز ينتمون إلى تنظيم دفاعي للحدود.

وكان موضوع محاضرته الثانية في السنة الدراسية نفسها "دراسة المراسيم المملوكية Etude des décrets Mamelouks"، وتشمل هذه الدراسة التعليق على (25) نقشاً عربياً غير منشورة من أماكن سورية متباينة. وتحتوي هذه المراسيم على إلغاء رسوم وممارسات مالية غير شرعية من مسؤولي السلطة المحلية؛ مثل: رسوم الانتفاع المفروضة على أصحاب الحرف، وضرائب على الحجاج المسلمين، والبيع الإجباري لبعض المنتجات، والقيود على حرية التجارة (التحكير أي الاحتكار، والتحجير أي المنع)، والتوابل المقدمة للقضاة، والإخلال بواجبات الوظيفة على حساب أهل الذمة. وقد نشرت هذه المحاضرة تحت عنوان "مراسيم مملوكية في سورية Décrets Mamelouks de Syrie" في نشـرة الدراسـات الشرقية Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas الصادرة عن المعهد الفرنسي بدمشق، المجلد (12) 1947-1948[1].

(1) Ibid., pp. 51-57. Et Régis Blachère, op. cit., p. 15

وفي السنة الدراسية 1948-1949، ألقى سوفاجيه في معهد فرنسا أربع محاضرات، كانت الأولى عن "النقوش والصروح الأثرية في دمشق وحلب Inscriptions et monuments de Damas et d'Alep". وتبيِّن له فيها ضرورة إعداد مجلدات تحتوي "مدوّنة النقوش العربية Corpus inscroptionum arabicarum" بصورة منهجية وإيضاح أهميتها التاريخية. وبدأ في هذه السنة بتقديم نقوش دمشق. وهي عشرون نقشاً لها صلة ببناء سور دمشق المحصن وإعادة بنائه. وتبين هذه النقوش أن السور لم يكن على حاله قبل منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، علماً بأن بقاياه الأثرية القديمة نادرة الوجود. ومن هذه النقوش نقش عن فندق عباسي اختفى، ولكنه معروف من خلال نص أدبي لمؤلف عربي. ومنها أيضاً نقشان فاطميان في بلدة الربوة عند جسر تورا. وتحدث سوفاجيه بإسهاب عن القيمة التاريخية لهذه النقوش الثلاثة، وعن نقوش ملوك غاو Gao في النيجر بغرب أفريقيا، التي تقدم، لأول مرة، معلومة عن التغلغل الإسلامي في السودان الغربي.

ودارت المحاضرة الثانية لسوفاجيه في السنة الدراسية نفسها حـول "أبحـاث عن مماليك مصر Recherches sur les Mamelouks d'Egypte". وقد عمل في محاضرته هذه على ضبط أسماء القادة الأتراك، كما وردت في معجم الأعلام لابن تغري بردي.

وفي محاضرته الثالثة تناول سوفاجيه المشاريع التي أنشأها الفرنجة في قبرص على الساحل السوري، بعد جلائهم عن البلاد سنة 1291م. وجرت محاولات لإعادة غزو سورية سنة 1299م بحملة بطرس الأول دو لوزينيان Pierre 1er de Lusignan. ولمعرفة كيف واجه المماليك هذه المحاولات لجأ سوفاجيه إلى الوثائق الأثرية غير المنشورة، وقِطَع من الأرشيف، وأخبار العرب والغرب، وكتب الرحالة، والتعليمات الملاحية. وفي ضوء هذه المصادر أوضح سوفاجيه كيف حال المماليك دون نزول قوات إفرنجية على الساحل السوري وحراسة طرقه ليل نهار.

وفي محاضرته الرابعة التي ألقاها في معهد فرنسا قدم سوفاجيه مصدراً غير منشور لتاريخ المماليك في سورية هو كتاب "أخبار الجزري Chronique d'Al-Jazari". ووجد فيه مصدراً أصيلاً ودقيقاً في معلوماته، نقل عنه عدد من إخباريي القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين[1].

3- كتبه المنشورة

بلغ مجموع كتب جان سوفاجيه التي نشرتها دور النشر الفرنسية عشرة كتب، منها ثلاثة هي ترجمات لمؤلفات عربية، وتُرجم إلى العربية اثنان من كتبه. وسوف نتناول كتبه ومؤلفاته

(1) Mémorial Jean Sauvaget, Tome I, pp. 51- 60

حسب تسلسل تاريخ صدورها:

1. نبدأ بأطروحته التي تقدم بها إلى جامعة السوربون، ونال بها شهادة دكتوراه دولة في الآداب سنة 1940، وعنوانها **"حلب: دراسة عن تطور مدينة سورية منذ نشأتها حتى منتصف القرن التاسع عشر"**[1]. ونشرت في باريس سنة 1941. ويعد هذا الكتاب باكورة إنجازات سوفاجيه العلمية التي ارتقت به في السلم الأكاديمي إلى رتبة الأستاذية. وقضى في إعداده سنوات عدة، طبّق خلالها منهجه في كتابة التاريخ الإسلامي بعامة وتاريخ بلاد الشام بخاصة.

يقول سوفاجيه في التمهيد لكتابه هذا: "أود لو أتوغل في جميع تفاصيل الحياة اليومية للمدينة، متتبعاً من قرن زمني إلى آخر لجميع جوانب النشاط الحضري المتنوع جداً، مراقباً الناس في أعمالهم وفي اهتماماتهم كل يوم، ومشاهدتهم عن قرب يبنون مدينتهم. وإذا لم أفعل ذلك، فلأن التوثيق الذي توصلت إليه لم يتح لي ذلك"[2].

---

(1) Jean Sauvaget, Alep: Essai sur le développement d'une Ville Syrienne, des Origines au milieu du XIX^{ème} Siècle, Paris, Librairie Orientaliste, Paul Guethner, 1941. (Ouvrage Publié avec le concours de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres (Fondation de Clercq).

(2) Ibid., p. X (Avant- propos)

وفي بحثه عن المصادر التاريخية لحلب في العصر الوسيط، لجأ سوفاجيه إلى مؤلفات عربية عديدة وثرية بالمعلومات، والأخبار التاريخية المحلية التي تصف المدينة. غير أن هذه المؤلفات لم تحقق الهدف الذي كان يسعى إليه وحدده فيما سبق. لذا حرص على عرض لائحة بمبادرات الأمراء الذين حكموا حلب، وإبراز فضائل علمائها، وعلى ذكر مؤسسات المدينة التي تجاهلها العديد من المؤرخين العرب؛ مثل أسواق المدينة كسوق الطحين، وسوق العبيد، والمسلخ، وشرطة المدينة. ولاحظ سوفاجيه أنه منذ القرن السادس عشر الميلادي تراجعت المصادر التاريخية الشرقية (العربية والتركية) عن تقديم معلومات مفيدة عن المدينة، لتحل محلها كتب الرحالة الغربيين الذين زاروها. واتسمت كتبهم بالملاحظة الدقيقة الفاحصة، والمشاهد لبيئة مختلفة جداً عن بيئتهم، وتسجيلهم للوقائع والأحداث التي سكت عنها المؤلفون العرب. وحتى التوثيق لا يمكن استعماله دون تحفظات وحذر.

وحول تاريخ حلب السابق للإسلام، لم يجد سوفاجيه في المصادر إلا نقاطاً وإشارات تاريخية محدودة لا تتيح كتابة دراسة تاريخية حضرية عن المدينة. ولكنه وجد في الملاحظة العلمية الأثرية مصدراً مهماً للمعلومات في هذا الصدد. فالصروح القديمة توضح، إلى مدى معين، ماضي المدينة

"إذا تناولنا دراستها بطريقة مناسبة، كما يقول سوفاجيه، وبرفض اعتبارها تجمعاً لمواد جامدة فقط، ومنجزة بشيء من الفن والبراعة التقنية. ويكفي أن لا ننسى أنها، قبل كل شيء، عمل الإنسان، وأنه لم يفكر بها على أن تكون غاية، وإنما وسيلة، لأن تنظيمها استجابة لحاجات تعتمد على الوسط الاجتماعي"[1]. وفي حديثه عن حلب في العصر الهلنستي، اتضح حجم المساعدة التي قدمتها الأبنية الأثرية لتاريخ المدينة. يقول سوفاجيه: "وإزاء نقص النصوص التاريخية، بدا لي أن الدراسة الأثرية قد قدمت لي التوثيق الأوسع والأكمل والأوثق.. وأن هذا المنهج له الفضل بتزويدي بالتوثيق السليم".

عرض سوفاجيه إعداده لدراسته هذه بالطريقة التالية:

"بدأت أولاً بتعريف عام بالموضوع، باعتمادي على دليل الأبنية التاريخية في حلب، الذي وضعته لصالح دائرة الآثار، وبالمصادر الأيسر في الوصول إليها. وبذلك شكلت صورة بيانية للمراحل المتتالية للمدينة، والمشكلات التي تتصل بتاريخ الأجهزة في الحياة الحضرية.

هذا العمل الأولي بعد إنـجازه، قمـت بإجراء تحقيق منهجي في الموقع على شكل دليل كامل بقدر الإمكان

(1) Ibid., p. XI

للمدينة المعاصرة. وقد قسمت المدينة إلى أقسام بصورة كيفية، واكتشفت في كل قسم ما فيه من بقايا أثرية وأسماء المواقع والمنشآت التجارية والصناعية إلخ.. ووجدت نوعاً جيداً من عناصر المدينة القديمة الباقية في مواضعها... واكتسبت معرفة دقيقة بالمدينة، وتخيلت الحياة الحضرية شبه الكاملة فيها. وعرفت خصائص معينة منها، غابت عني بلا ريب لو أنني اكتفيت بالبحث في الكتب"[1].

ويضيف سوفاجيه: "ثم صنفت الوثائق التي جمعتها حسب الترتيب الزمني، واتبعت في الدراسة منهجاً من الطبوغرافيا التاريخية لحلب، باعتمادي أحياناً على الأبنية الأثرية وعلى النصوص المكتوبة، وبذلك استطعت أن أضع خطة لكل حقبة تاريخية شبه كاملة للمدينة. وبالمقارنة بين هذه الخطط تبين لي معنى ومدى التعديلات التي أجريت على المركز الحضري بين تاريخين معينين. ولم يبق إلا البحث في الوسط التاريخي عن تفسير الوقائع المسجلة"[2].

يذكر سوفاجيه أنه لدى اطلاعه على المصادر العربية، أهمل كتب التاريخ العام التي تقوم على تجميع الأخبار والروايات، وركز على كتب تاريخ المدينة، فهو يقول: "وقد

(1) Ibid., p. XII
(2) Ibid., pp. XII- XIII

أكدت لي الخبرة أنه لدى المؤلفين الحلبيين الميالين، ربما، إلى بعض التحيز، معرفة أفضل من أي مؤرخ آخر عن ماضي مدينتهم. وهم أكثر استعداداً لتسجيل ما كتبوه عنها، ولديهم أثرى التوثيق عنها"[1].

اعتمد سوفاجيه في كتابه هذا التسلسل الزمني في فصوله، مبيناً المراحل المختلفة لتطور مدينة حلب وتغير أنظمتها السياسية. وقدم الأحداث البارزة في كل فصل وأثرها على الحياة الداخلية للمدينة. كما ذكر الأجهزة الأساسية في المركز الحضري. وعقد مقارنة بين كل حقبة والحقبة السابقة لها، مما أتاح له بيان أهمية التحولات التي تمت، سواء كانت تقدماً أو تراجعاً. وجمع في الفصل الأخير النتائج التي استخلصها من دراسته، ومنها جدول بالتطور التاريخي لحلب، ومقارنة تطورها هذا مع تطور مدن سورية أخرى معروف ماضيها[2].

وافتخر سوفاجيه بأن دراسته عن مدينة حلب أول دراسة علمية منهجية عن مدينة إسلامية. وقال: إن دراستين صدرتا قبل صدور كتابه؛ الأولى: عن الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي لها سنة 1830م، والثانية: عن مدينة القاهرة، وهي دراسة سطحية جداً مبنية على المصادر العربية فقط. ولذا رأى أن

(1) Ibid., p. XIV
(2) Ibid., pp. XIV- XV

كتابه هذا جدير بالاستعمال من قبل المستشرقين: الجغرافيين منهم والمؤرخين، وعلماء الآثار[1].

2. مصادر دراسة التاريخ الإسلامي : دليل ببليوغرافي[2].

صدر كتاب جان سوفاجيه "مدخل إلى تاريخ الشرق الإسلامي Introduction à l'histoire de l'Orient musulman" في باريس سنة 1943. حاول أن يعرض فيه أبرز ملامح التاريخ الإسلامي من خلال الببليوغرافيا التي تعين على فهم هذا التاريخ ودراسته. وقد أضاف إليه كلود كاين، أستاذ علم الاجتماع في معهد الدراسات الإسلامية ومركز دراسات الشرق المعاصر بجامعة باريس، كثيراً من الإضافات والتصويبات سنة 1962. وصدرت ترجمة لهذه الطبعة بالإنكليزية بإشراف مركز دراسات الشرق الأدنى الجديد New Eastern Center بجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، تضمنت عدداً جديداً من المراجع. وقد بيّن كلود كاين في مقدمة الطبعة الإنكليزية أن الطبعة الفرنسية

---

(1) Ibid., p. XV

(2) Jean Sauvaget and Claude Cahen, Introduction to the History of the Muslim East: A Bibliographic Guide, 2nd Edition, Los Angeles, California, Greenwood Press 1965. جان سوفاجيه وكلود كاين، مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، دليل ببليوغرافي، ترجمة عبد الستار الحلوجي وعبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، دمشق، 1998.

الثانية التي أعدها لم تخل من بعض الأخطاء في المعلومات، وعدم كفاية العرض فيها، وأضيفت إليها بعض المراجع التي لم ترد في الطبعة الفرنسية. ولذا يعد الكتاب الصادر بالإنكليزية طبعة جديدة منقحة[1]. وكان صلاح الدين المنجد، رئيس ديوان مديرية الآثار العامة في سورية، قد ترجم جزءاً من هذا الكتاب إلى العربية بعنوان "جان سوفاجيه: رائد التراث العربي"، ونشرته دار العلم للملايين في بيروت سنة 1947. وقام بترجمة الطبعة الإنكليزية إلى العربية الدكتور عبدالستار الحلوجي والدكتور عبدالوهاب علوب، ونشره المجلس الأعلى للثقافة سنة 1998.

ألف سوفاجيه، في الأصل، هذا الكتاب، تلبية لحاجة الطلاب له، حين كان يدرّس في معهد الدراسات العليا ومعهد فرنسا. وقد ركز مؤلفا الكتاب سوفاجيه وكاين على تاريخ المشرق الإسلامي الذي يشمل شبه جزيرة العرب وبلاد الشام ومصر وبلاد فارس وتركيا والبلاد المتاخمة لها. وأكدا "ضرورة خضوع دراسة التاريخ الإسلامي للأساليب والمواصفات نفسها التي تحكم الدراسات التاريخية عامة، وهي الدقة والحذر والنظرة الناقدة الواعية، وتحلي المؤرخ بالأمانة وحب الحقيقة والإلمام باحتمالات التطور والعلاقات المتبادلة بين عناصر التاريخ المختلفة. وأن تكون لديه المقدرة على وضع كل جزء

(1) المصدر نفسه، تقديم المترجمين، ص 5-6 و11.

في مكانه في الإطار العام، وأن يرى أوجه التشابه والاختلاف بين المجتمعات المتقاربة".

وذكر المؤلفان الكتب المماثلة لكتابهما التي صدرت قبله بالألمانية والفرنسية والروسية والإنكليزية في مقدمة الكتاب. وتضمن القسم الأول منه مقدمة وتسعة فصول دارت حول مصادر الموضوعات التالية: اللغة العربية وقواعدها، والمؤلفات التي صدرت باللغات الأوروبية حولها، واللهجات العربية المحلية، والمعاجم العربية وما يقابلها من اللغات الأوروبية، والخط العربي، ودراسة اللغتين الفارسية والتركية وقواعدهما ومعاجمهما والمعاجم التي تقابلهما باللغات الأوروبية، والوثائق من السجلات الخاصة بالحياة اليومية: الإدارية والقضائية والحسابات والمراسلات الخاصة، باعتبارها مصدراً مباشراً ونزيهاً للمعلومات، والأدلة التي صدرت بالعربية والألمانية والإنكليزية واحتوت على هذه الوثائق، والمصادر الروائية التي تناولت تاريخ الأدب العربي وسير عنترة بن شداد، وبني هلال، وذات الهمة، ومصادر الحديث النبوي وحياة النبي محمد (ﷺ)، وأصحابه وخلفائه الراشدين، وكتب الحوليات، والرحلات الجغرافية العربية والفارسية والتركية، والمصادر الفقهية بمختلف اللغات العربية والفارسية والتركية واللغات الأوروبية، والمصادر الأدبية الأخرى، والبيلبوغرافيات الحيوية التي أعدها المستشرقون الأوروبيون،

والمصادر الأثرية: علم النقوش وعلم النمّيات (المسكوكات) والفهارس التي احتوتها باللغات الأوروبية، والجغرافية العرقية المعاصرة[1].

أما القسم الثاني من الكتاب، فيحتوي على ستة عشر فصلاً؛ تضمنت مصادر الموضوعات التالية: أدوات البحث والمؤلفات العامة، وأعمال خاصة في الجغرافيا والطبوغرافيا التاريخية والأجناس، وسلاسل الأسر وأنساب القبائل، والمقاييس والأوزان، والخطوط العامة للتاريخ الإسلامي، والمناخ الاقتصادي والاجتماعي، وكتب الفقه والحياة الأسرية (الرق والدين والأعراق)، والتقنية والحرب، وملكية الأرض والإقطاع والوقف، والتجارة، والنظم السياسية والإدارية، والمناخ الثقافي والديني، والفلسفة والعلم، وتاريخ الفن، وتاريخ الشرق الأدنى والجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام، ومحمد (ﷺ): محمد الإنسان، والقرآن، ومصادر الفتوحات العربية وتاريخ الفتوحات العربية في مؤلفات المستشرقين، وتاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين، والأدب والفن، والخلافة العباسية حتى أواسط القرن الحادي عشر الميلادي، والتاريخ العام والسياسي، والنظم الاقتصادية والاجتماعية، والحركات القومية والمناخ الديني، والإسماعيلية والفاطميين، والسلاجقة وذريتهم من القرن الحادي عشر حتى

(1) المرجع نفسه، ص 23- 104.

القرن الثالث عشر الميلادي، والإسلام والحملات الصليبية، والخلافة بعد حكم السلاجقة، ومصادر تاريخ الزنكيين والأيوبيين، والعالم الإسلامي تحت سيطرة المغول والتيموريين، والتاريخ العام، وآسيا الصغرى، والقبيلة الذهبية، والمماليك، والمشرق العربي من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وتاريخ الجزيرة العربية وفارس والمشرق الإسلامي غير الخاضع للعثمانيين منذ ظهور الصفويين حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، ويشمل تاريخ إيران وآسيا الوسطى وسهول روسيا والهند المسلمة، والتوسع في المحيط الهندي، والإمبراطورية العثمانية، ومصادر التاريخ العثماني (السجلات والتراث والمصادر الأجنبية)، والدراسات العامة والتاريخ السياسي والنظم، ومؤلفات عن السياسة الخارجية للدولة العثمانية، وعن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وأقاليم الإمبراطورية العثمانية، والمناخ الديني والأدب والفنون، ومصادر تاريخ المغرب الإسلامي، وشمال إفريقيا وصقلية والأندلس حتى القرن الحادي عشر الميلادي، وعصر المرابطين والموحدين ومملكة غرناطة، وتاريخ شمال إفريقيا من القرن الثالث عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي، وتأثير الحضارة الإسلامية على أوروبا[1].

(1) المرجع نفسه، ص 105- 373.

وينتهي الكتاب بكشاف بالأعلام الواردة فيه مرتبة هجائياً ومقابلها بالحروف اللاتينية. ولا شك أن هذا الكتاب مفيد جداً، بل وضروري لجميع طلبة التاريخ الإسلامي في جامعات العالم كله.

3. كتاب "مؤرخون عرب، صفحات مختارة ومترجمة"[1]

يحتوي هذا الكتاب على سير موجزة لأربعة وعشرين من المؤرخين والكتاب العرب، ونماذج من كتابات كل منهم، مترجمة إلى اللغة الفرنسية. وقد اختارها جان سوفاجيه، كما قال في مقدمة الكتاب، ليس باعتبارها "أجمل صفحات المؤرخين العرب"، وإنما لأنها تقدم مشاهد من الحضارة العربية الإسلامية، وتلبي حب الاطلاع لدى الطلبة والقارئ الغربي، على الأشياء الغريبة في الشرق. ويحتوي الكتاب على ملحق لاستعمال غير المستشرقين، وقائمة بالمصطلحات التقنية.

يذكر المؤلف أنه ترجم جميع المقتطفات الواردة في الكتاب عن الأصل باستثناء واحدة منها. وقد أعد الكتاب للنشر في تشرين الأول/ أكتوبر 1943، وصدر سنة 1946. أما

(1) Jean Sauvaget, Historiens Arabes, Pages choisies, traduites, Initiation à l'Islam, Collection publiée sous le patronage de l'Institut d'Etudes islamiques de I'Université de Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien- Maisonneuve, Paris, 1946.

الكُتَّاب والمؤرخون الذين اختارهم المؤلف، فهم:

عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ المتوفى سنة 864م، اقتبس من مؤلفاته نصاً وضع له عنوان "التركي على السرج" يتحدث فيه الجاحظ عن مهارات الجند الأتراك العسكرية. واقتبس منه نصاً آخر وضع له عنوان "الواردات إلى العراق" تضمن ما كان العراق يستورده من الهند والصين وشبه جزيرة العرب من أدوات وأقمشة وتحف وورق وحيوانات في القرن التاسع الميلادي.

والكاتب الثاني هو محمد بن مسلم بن قتيبة (828-885م) مؤلف كتاب "عيون الأخبار". وقد اقتبس سوفاجيه منه نصاً وضع له عنوان "الأنقياء"، ويقصد بهم الخلفاء الراشدين.

والكاتب الثالث هو المؤرخ أحمد بن يحيى البلاذري، المتوفى سنة 892م. وعنوان ما اقتطفه من كتابه "فتوح البلدان" "سباخ العراق الأسفل" واستثمارها في الزراعة في عهد الأمويين.

والكاتب الرابع هو المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (839-923م) صاحب كتاب "تاريخ الرسل والملوك"، اقتطف من كتابه هذا ما كتبه عن الحجاج بن يوسف الثقفي، والي عبدالملك بن مروان على العراق، بعنوان "والٍ شديد البأس". ونقل سوفاجيه نصاً آخر من كتاب الطبري بعنوان

"مأساة قصر"؛ بيَّن فيه مأساة القائد العسكري التركي وصيف على يد الخليفة العباسي المتوكل على الله (847-861م).

واقتبس سوفاجيه من الكاتب الخامس الأديب محمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة 946م، الذي كان نديماً للخليفة العباسي الراضي بالله (934-940م) نصاً من كتابه "الساسة" بيّن فيه المؤامرة التي أتت بالخليفة نفسه إلى الخلافة.

ونقل سوفاجيه من الكاتب السادس المؤرخ علي بن حسين المسعودي، المتوفى سنة 956م، نصاً من كتابه "مروج الذهب" وضع له عنوان "لهو الخلفاء"، تضمن مدح الشاعر العربي البحتري للخليفة العباسي المتوكل على الله، وهُزء الشاعر الصيمري بالبحتري في حضرة الخليفة فأضحك الخليفة. وتضمن النص أنواع التسلية واللهو لدى الخلفاء العباسيين. ودار النص الثاني المنقول من كتاب المسعودي حول "اغتيال الخليفة المتوكل على الله".

والكاتب السابع الذي اقتطف سوفاجيه منه هو قدامة بن جعفر مؤلف كتاب "زهر الربيع في الأخبار"، ووضع لما اقتطفه عنوان "الجبهة الحربية ضد البيزنطيين"، ويدور هذا النص حول الحروب بين الدولة العربية الإسلامية والبيزنطيين، وبناء الثغور على الحدود بين الدولتين.

ونقل عن الكاتب الثامن الأديب أبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني المتوفى سنة 967م ثلاثة نصوص من كتابه "الأغاني": أولها بعنوان "مجيء السلالة المباركة"، ويعني وصول العباسيين إلى الخلافة سنة 750م. وثانيها بعنوان "كشف حساب" تضمن بعض الطرُف عن بدو الصحراء عند قدومهم إلى المدينة. وثالثها بعنوان "في حريم الخليفة"، ويتضمن وصفاً لجناح الحريم في قصر الخليفة العباسي الواثق بالله.

والكاتب التاسع الذي اقتبس منه سوفاجيه هو شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي صاحب كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، المتوفى سنة 1000م. وقد اقتبس من كتابه هذا ثلاثة نصوص: أولها نص طويل بعنوان "عرض للمنهج: اجتهادات أولية وملاحظات تفصيلية ضرورية"، يتضمن شرحاً للمنهج الذي اتخذه المقدسي في تأليف كتبه. وعنوان النص الثاني "وصف الفسطاط" عاصمة مصر، وعنوان النص الثالث "عادات سورية"، ويحتوي على معلومات عن عادات السوريين، مسلمين ومسيحيين، في الأعياد والمناسبات الاجتماعية والمواسم الزراعية.

أما الكاتب العاشر الذي نقل عنه سوفاجيه فهو أحمد بن محمد بن مسكويه، مؤلف كتاب "تجارب الأمم" والمتوفى سنة 1030م. وقد نقل من كتابه المذكور نصاً طويلاً وضع له

عنوان "محاكمة بالهرطقة في بغداد"، ويدور النص حول محاكمة العالم الصوفي الحسين بن منصور الحلاج، والحكم عليه بالإعدام حرقاً.

أما الكاتب الحادي عشر الذي اقتبس سوفاجيه من نتاجه التاريخي، فهو المؤرخ أبو يحيى حمزة بن أسد بن القلانسي، المتوفى سنة 1160م، وهو صاحب كتاب "المذيَّل في تاريخ دمشق". والنص المقتبس من هذا الكتاب طويل وبعنوان "مغامرات في عالم مضطرب"، يحتوي على أحوال الدولة العباسية في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، والصراع بين الترك والديلم على السلطة في بغداد، والحروب بين الخلفاء العباسيين والأباطرة البيزنطيين في الثغور، واحتلال الخليفة الفاطمي لبلاد الشام بعد أن سيطر على شمال إفريقيا ومصر.

ونقل سوفاجيه من الكاتب الثاني عشر أسامة بن منقذ (1095-1188م) أمير شيزر، الذي شارك في التصدي للحملات الصليبية إلى جانب عماد الدين زنكي، أتابك الموصل وحلب، وصاحب كتاب "الاعتبار". ونقل منه نصاً وضع له عنوان "صيد الطيور".

واقتطف سوفاجيه من الكاتب الثالث عشر الأديب عماد الدين البنداري، المعروف بالكاتب الأصفهاني، رفيق صلاح الدين الأيوبي في حملاته العسكرية، نصاً بعنوان "نمط الحجابة"،

وهو يدور حول عودة السلطان السلجوقي إلى بغداد، واستقبال الخليفة العباسي القائم بأمر الله له في 23 كانون الثاني/ يناير 1058م، ومراسم استقباله.

والكاتب الرابع عشر الذي نقل عنه سوفاجيه هو الرحالة المغربي محمد بن أحمد بن جبير، المولود في بلنسية في الأندلس سنة 1145م. فقد نقل من "رحلته" نصاً بعنوان "لدى الفرنجة في الأراضي المقدسة"، تضمن علاقة المسلمين في بلاد الشام بالفرنجة خلال احتلالهم لأجزاء منها.

واقتبس سوفاجيه من الكاتب الخامس عشر المؤرخ عز الدين علي بن محمد بن الأثير (1160–1232م)، صاحب كتاب "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية" نصاً من كتابه هذا بعنوان "إهداء"، وهو تقريظ لآل زنكي وثناء على جهودهم في مقاومة الصليبيين.

أما الكاتب السادس عشر الذي اقتطف سوفاجيه من كتابه "وفيات الأعيان"، فهو شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، المتوفى سنة 1282م. وعنوان النص المقتطف "أمير تركي من زمن الحروب الصليبية"، يتحدث فيه عن أمير أربيل علي بن بكتكين، المتوفى سنة 1168م.

ونقل سوفاجيه من الكاتب السابع عشر محيي الدين عبدالله بن عبدالظاهر (1223–1292م)، رئيس ديوان الإنشاء

في العهد المملوكي، ومؤلف كتاب "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (بيبرس)"، نصاً منه بعنوان "روح الجهاد" تناول جهود السلطان الظاهر بيبرس في مقاومة الصليبيين وحروبه ضدهم.

والكاتب الثامن عشر الذي نقل منه سوفاجيه هو المؤرخ شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري (1301-1349م)، صاحب كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار". والنص المنقول من كتابه هذا بعنوان "المؤسسات والاحتفال في البلاط المراكشي"، تحدث فيه بالتفصيل عن مراسم الاحتفال في البلاط المريني في مراكش، والمكافآت التي كان السلطان المريني يعطيها لجنده وأعوانه.

أما الكاتب التاسع عشر الذي اقتطف منه سوفاجيه، فهو المؤرخ عبدالرحمن بن محمد، الشهير بابن خلدون (1332-1406م) صاحب كتاب "تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر". وقد أثنى عليه سوفاجيه، واعتبره الكاتبَ العربي الوحيد الذي ارتقى إلى مستوى مؤرخ. والنصان اللذان نقلهما سوفاجيه من مقدمة الكتاب، وأعطاهما عنواناً واحداً هو "في النقد التاريخي".

واقتطف من كتاب الكاتب العشرين المؤرخ شهاب الدين أحمد القلقشندي (1355-1418م) "صبح الأعشى في قواعد

الإنشا" نصاً وضع له عنوان "صلاحيات كاتب الدولة في أمر البريد".

واقتبس من مخطوط الكاتب الحادي والعشرين صالح بن يحيى البحتري نصاً بعنوان "أوراق عائلية"، روى فيه أحداث لبنان في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي.

ونقل من كتاب الكاتب الثاني والعشرين، المؤرخ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (1364–1442م) "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" نصاً بعنوان "الجامع الأزهر" يدور حول بناء الجامع الأزهر من قبل جوهر الصقلي بين سنتي 970 و972م، ووصف البناء وما أضاف إليه الخلفاء الفاطميون والمماليك حتى سنة 1415م.

أما الكاتب الثالث والعشرون، فهو أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي، المتوفى في القاهرة سنة 1465م، صاحب كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة". وقد اقتبس سوفاجيه منه نصين بعنوان واحد هو "مهن المماليك".

ونقل عن الكاتب الرابع والعشرين المؤرخ محمد بن أحمد بن إياس، المتوفى بالقاهرة سنة 1524م، صاحب كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" نصاً طويلاً وضع له عنوان "ثلاثة أشهر من حياة القاهرة تحت حكم آخر المماليك سنة 1498م".

ومن الجدير بالذكر أن سوفاجيه لم يذكر أسماء الكتب والمخطوط الواردة في كتابه هذا، مما جعلني أضيفها هنا في عرضي للكتاب. كما أضفت المعلومات الوافية عن أسماء الكتاب العرب وتاريخ وفاة كل منهم. وكان قد وضع من عنده عناوين لجميع المقتطفات الواردة فيه.

4. المسجد الأموي في المدينة المنورة: دراسة عن الأصول المعمارية للمسجد والبازيليك[1]

تناول جان سوفاجيه في كتابه هذا دراسة المسجد النبوي في المدينة المنورة، وإعادة بنائه على يد خلفاء بني أمية. وكان هدف سوفاجيه من دراسته لهذا المسجد ولغيره من المساجد الكبرى في العهد الأموي البرهنة على صحة نظريته المعمارية القائلة إن بناء هذه المساجد قد تم تقليداً لبناء الكنائس المسيحية على شكل البازيليك basilique (المستطيل الذي له بابان: باب في أول المستطيل هو الباب الرئيسي، وباب في نهايته بالقرب من المحراب في المسجد أو المذبح في الكنيسة أو المعبد اليوناني أو الروماني).

(1) Jean Sauvaget, La Mosquée Omeyyade de Médine: Etude de la Mosquée et la Basilique, Institut Français de Damas, Vanoest, les Editions d'art et d'histoire, Paris, 1947.

بدأ سوفاجيه دراسته هذه بنقد المصادر التاريخية التي استعملها الباحث البريطاني السير كيبل أرتشبالد كريزويل Sir Keppel Archibald Creswell في دراسته للمسجد النبوي في المدينة المنورة[1]، في كتابه Early Muslim Architecture, vol. I, 1932, vol. II, 1940.

يرى سوفاجيه أنه لا يوجد بين المؤلفين العرب الذين اعتمدهم كريزويل مؤرخ معاصر للأحداث والوقائع التي رواها عن المسجد النبوي. وحتى لو وجد مثل هذا المؤلف، فلا بد من تقييم شهادته أو روايته، وبيان مصداقيته وأصالة روايته، مؤكداً ضرورة الحذر الشديد في استعمال المصادر. وهذا ما لم يقم به كريزويل. وذهب سوفاجيه إلى أن المؤلفات الشرقية (العربية والفارسية والتركية) التي اعتمدها كريزويل في دراسته ليست

(1) كريزويل مؤرخ عمارة بريطاني، ولد في لندن سنة 1879، وحصل على شهادة بكالوريوس في الهندسة الكهربائية. عين مساعداً لضابط التجهيزات بسلاح الجو الملكي البريطاني في مصر في الحرب العالمية الأولى، وعيَّن سنة 1919 مفتشاً للأبنية الأثرية تحت قيادة الجنرال اللنبي Allenby في فلسطين وسورية. عمل على كتابة تاريخ العمارة الإسلامية في مصر، وعيّن محاضراً وأستاذاً في جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) بين سنتي 1931 و1951. كما عيّن أستاذاً مميزاً في الفن والعمارة الإسلامية في الجامعة الأمريكية في القاهرة بين سنتي 1956 و1967. وتوفي في إنكلترا سنة 1974.
https.//en.wikipedia.org/wiki/K.A.C. Creswell.16.9.2018.

المصادر المناسبة للدراسة العلمية الأثرية للمسجد النبوي. وأن ما كتبه يفتقر إلى الدقة والتوثيق السليم.

وصنّف سوفاجيه مصادر دراسة كريزويل ومراجعها في ثلاث مجموعات:

الأولى الأكثر عدداً، وهي التواريخ العامة للعالم الإسلامي، وما زال العديد منها مخطوطاً (في النصف الأول من القرن العشرين). وهذه التواريخ العامة لا علاقة لمؤلفيها بإعادة بناء المسجد النبوي في عهد الوليد بن عبد الملك، ولا اهتمام لهم بذلك، ولا تحتوي كتبهم على معلومات تفصيلية عن عملية إعادة البناء. ومعظم هؤلاء المؤرخين جامعو روايات يكررون ما كتبه سابقوهم.

أما المجموعة الثانية من مصادر كريزويل، فتشمل خمسة مؤلفين هم: ابن سعد المتوفى سنة 845م، صاحب كتاب "الطبقات الكبرى"، والبلاذري المتوفى سنة 892م، صاحب كتاب "فتوح البلدان"، واليعقوبي المتوفى سنة 897م، صاحب كتاب "تاريخ اليعقوبي"، والدينوري المتوفى سنة 895م، صاحب كتاب "الأخبار الطوال"، والطبري المتوفى سنة 929م، صاحب كتاب "تاريخ الرسل والملوك".

وتشمل المجموعة الثالثة (18) مؤرخاً عاشوا بين منتصف القرن العاشر ونهاية القرن الرابع عشر الميلادي[1].

(1) J. Sauvaget, La Mosquée Omeyyade de Médine, pp. 9-22

ركز سوفاجيه في دراسته على المؤلفين الذين زاروا المسجد النبوي ووصفوه في كتبهم. ودرس مصادر ومراجع دراسته في الفصل الثاني من كتابه. واعتبر مؤلفات التاريخ المحلي أهم مصادره ومراجعه، ولكنه أخضعها كلها للنقد العلمي. وهي عشرون مصدراً ومرجعاً عربياً وأربعة كتب بالتركية وثلاثة عشر كتاباً في الرحلات العربية والفارسية والتركية. وأضاف إليها كتباً عشرة من الرحالة الغربيين الذين زاروا المدينة المنورة ووصفوا المسجد النبوي في كتبهم. كما أضاف سوفاجيه إلى هذه المصادر والمراجع بعض الكتب الدينية، وصنّف مصادره ومراجعه التي بلغت تسعين مصدراً ومرجعاً وفق معيار الأصالة وغنى التوثيق. وتتبع في دراسته تاريخ المسجد النبوي منذ إعادة بنائه في عهد الوليد بن عبدالملك حتى مطلع القرن العشرين[1].

لخص سوفاجيه مراحل التطور العمراني للمسجد النبوي في المدينة المنورة باثنتي عشرة مرحلة، بدءاً من بناء المسجد على يد النبي (ﷺ) في السنة الأولى من الهجرة، سنة 622 ميلادية، وحتى إعادة بنائه في عهد السلطان العثماني عبد المجيد سنة 1853م[2]. وعاد في الفصل الرابع من كتابه إلى بحث إعادة المسجد في عهد الوليد بن عبدالملك، وبإشراف واليه على

(1) Ibid., pp. 34-39

(2) Ibid., pp. 41-59

المدينة عمر بن عبد العزيز. وشرح الخطوط العريضة لإعادة بناء المسجد وبناء السور المحيط به، وبناء العقود والقناطر وواجهات قاعة الصلاة والمآذن والأبواب والزخارف وقطع الرخام والمحراب والمقصورة والمنبر وقبر النبي (ﷺ)[1].

وتناول في الفصل الخامس من كتابه بالدراسة والمقارنة ستة عشر مسجداً بناها خلفاء بني أمية في دولتهم الممتدة من الأندلس إلى حدود الصين[2].

وبيّن في الفصل السادس التشابه في خطط بناء هذه المساجد والتناسق في التنظيم، وإن اختلفت في الشكل والأبعاد الخاصة بقاعة الصلاة وباحة المسجد، وتوزيع السنادات ونوعها وحجمها الخاص بالفناء المحوري، وتنظيم واجهاته ومكان المآذن. وأكد أن مخططات جميع هذه المساجد قائمة على مخطط البازيليك. وأوضح في هذا الفصل وظيفة كل من المنبر والمحراب والمقصورة والفناء المحوري في المسجد، وأهمية خطبة الجمعة وخطبتي عيد الفطر وعيد الأضحى[3].

وخصص سوفاجيه الفصل السابع من كتابه، وهو الفصل الأخير، لدراسة أصول قاعة الاجتماعات البازيليكية الشكل

(1) Ibid., pp. 69-92
(2) Ibid., pp. 93-134
(3) Ibid., pp. 134-157

في القصور الأموية، وهي في نظره أصول يونانية ورومانية. وأكد أن هذا النمط من البناء موجود في القصور الإمبراطورية الرومانية والبيزنطية والساسانية في بلاد فارس، وفي الكنائس المسيحية في إثيوبيا والكنس اليهودية، وفي الأسواق والمحاكم الهلنستية والرومانية والبيزنطية، وفي الحمامات، وضرب أمثلة على ذلك[1].

لم يخرج سوفاجيه، في نظريته المعمارية هذه، عن ما أكده المستشرقون الغربيون بعامة أن أصل الحضارة الإنسانية ومنبتها في أوروبا، وأن اليونان والرومان هم الأصل، وتجاهلوا حضارات الشرق القديمة التي سبقت حضارة اليونان والرومان بآلاف السنين، وهي حضارات ما بين النهرين: السومرية والأكادية والبابلية والأشورية، وحضارة مصر القديمة، وحضارة بلاد الشام الكنعانية والأمورية والفينيقية والآرامية وأثرها في الحضارة اليونانية والرومانية، ناهيكم عن الحضارات الآسيوية العريقة في الصين والهند، والمعابد المبنية على شكل البازيليكا كانت موجودة في بلاد ما بين النهرين ومصر وبلاد الشام قبل أن يعرفها اليونان والرومان بقرون من الزمن.

(1) Ibid., pp. 158-185

5. تقرير عن الصين والهند[1]

ترجم جان سوفاجيه مخطوطاً عربياً مجهول المؤلف بعنوان "تقرير عن الصين والهند"، ونشر ضمن مجموعة غيوم بوديه العربية في باريس سنة 1948. وأعيد نشره في كتاب تكريم جان سوفاجيه Mémorial Jean Sauvaget, Institut Français de Damas, vol. I, Damas, 1954, pp. 189-309" بواقع (120) صفحة من القطع المتوسط، وبعنوان: "عجائب الهند Les Merveilles de l'Inde". وكان فان ديرليت P.A. van der Laith قد نشره بالعربية، وترجمه إلى الفرنسية، قبل سوفاجيه، لوي مارسيل دفيك Louis Marcel Devic، ونشرته دار بريل E.J. Brill للنشر في مدينة لايدن Leiden في مجلدين بين سنتي 1883 و1886. وترجمه سوفاجيه بعد ذلك لتحسين ترجمة دفيك.

يحتوي الكتاب على (131) قصة ورواية عربية عن الهند وسيلان والصين والملايو وإندونيسيا واليابان (بلاد واق الواق)، وعن ملوك هذه البلاد وأمرائها، وعن عاداتهم وتقاليدهم ودياناتهم الهندوسية والبوذية وغيرهما. كما يحتوي على معلومات عن الحيوانات البرية والبحرية والنباتات والمعادن

(1) Jean Sauvaget, Relation de la Chine et de l'Inde, Collection arabe de G. Budé, Paris, 1948.

بمختلف أنواعها من حديد ونحاس وفضة وذهب والحجارة الثمينة من مجوهرات. وعن عجائب الحيوانات البرية والبحرية والأشجار والنباتات فيها. وتتضمن هذه القصص معلومات جيدة عن تجارة العرب مع هذه البلاد في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وعن الملاحة في المحيط الهندي وبحر الصين والمحيط الهادي، وعن اتجاهات الرياح في رحلات التجار والملاحين العرب إلى هذه البلاد الآسيوية. وتناولت بعض الروايات والقصص ألبسة سكان هذه البلاد، رجالاً ونساءً، ووضع المرأة في مجتمعاتها، وممارسة السحر والتنبؤ والشعوذة.

كما تناولت هذه الروايات التجارة العربية المشرقية مع القارة الإفريقية في الفترة الزمنية نفسها. وتحدثت عن عادات الأفارقة وتقاليدهم وطقوسهم وعباداتهم والحيوانات والنباتات العجيبة في أفريقيا، والأهوال والمخاوف التي كان يواجهها الملاحون والتجار العرب في رحلاتهم الطويلة إلى هذه البلاد، والمغامرات التي قاموا بها.

وتحتوي هذه الروايات على معلومات عن تجار يهود من عُمان مارسوا التجارة مع بلدان الشرق الأقصى، وعن شعوب في هذه البلاد تعيش في جزر نائية تأكل لحم البشر، وعن قرصان في جزر المحيطين الهندي والهادي، ولصوص في الهند ينتظمون في عصابات تهاجم التجار الأثرياء.

ولَعلَّ الجانب المهم في هذا الكتاب الروايات المثيرة عن الأشياء الغريبة، والحوادث الطريفة، والكائنات العجيبة التي تشد القارئ إليها، والتي كانت الدافع لترجمتها إلى الفرنسية لإشباع نهم القراء الأوروبيين في معرفة الشرق وعجائبه وأسراره.

وعلى الصعيد التاريخي تحتوي هذه الروايات على معلومات مفيدة عن تجارة العرب مع الهند وبلدان الشرق الأقصى، ومع سواحل القارة الأفريقية الشرقية وداخلها، والمواد التي كان العرب يستوردونها من هذه البلدان وتلك التي كانوا يصدرونها إليها خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين.

6. تاريخ دمشق للجزري[1]

قام جان سوفاجيه، بالإضافة إلى ترجمة الكتاب السابق إلى الفرنسية، بترجمة كتاب "تاريخ دمشق" للجزري، وكتاب "مقتطفات من كتاب كنوز الذهب" لسبط بن العجمي.

حقق سوفاجيه كتاب "تاريخ دمشق" لشمس الدين محمد ابن نجم الدين الجزري، وترجمه إلى الفرنسية، ونشر سنة 1949 في باريس. وقد بيَّن دوافع اهتمامه بهذا الكتاب؛ وهي:

(1) Jean Sauvaget, La Chronique de Damas d'al-Jazari, dans la Bibliothèque de l'Ecole des Hautes Etudes, fasc.294, Paris, 1949, in 80, 119 pages, Analyse et extraits de l'histoire de Jazari, une des sources de l'histoire Syrienne.

ما يحتويه من معلومات تحسن من المعرفة بتاريخ العالم الإسلامي بعامة، وتاريخ سورية في عصر المماليك بخاصة. كما أن الكتاب يقدم توثيقاً شخصياً من الدرجة الأولى لما ورد فيه من معلومات.

أما مؤلف الكتاب الجزري، فقد ولد في دمشق في 24 شباط/فبراير 1260م، وتعلم فيها، حيث درس الحديث النبوي على يد عدد من الأساتذة منهم فخر الدين البخاري، وتقي الدين بن الواسطي، وعزالدين الفاروثي. وانتقل إلى القاهرة والإسكندرية، فدرس فيهما على يد الشيوخ شرف الدين الدمياطي، وشهاب الدين الأبرقوهي، والشريف تاج الدين العراقي. كتب في الحديث، وأحب التاريخ، وألَّف فيه كتاب "حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكبار والأعيان من أبنائه"، وهو عنوان يتفق مع محتواه. وقد عرض المؤلف الأحداث البارزة في عصره، سنة بعد سنة، وأعد سجلاً بالموتى الذين شارك في دفنهم. والتزم بالتسلسل الزمني للأحداث والوقائع، ورتب أسماء الموتى حسب أهميتهم. غير أن لغة الكتاب العربية ضعيفة ومتأثرة باللهجة العامية المحلية. وأسلوب عرض المعلومات فقير. أما بالنسبة إلى المعلومات الواردة فيه، فيعد الكتاب وثيقة تاريخية مهمة[1].

(1) Ibid., Avant- propos, pp. I-II

تحدث الجزري عن الأحداث والوقائع والوفيات كشاهد عيان، كما كتب عن الأحداث والوقائع التي لم يشارك فيها شخصياً، معتمداً على مخبرين ثقات هم شهود عيان أيضاً. واختار مخبريه من القضاة والأمراء وناقلي البريد والتجار القادمين من البلاد الأجنبية. وقد نقل عن الجزري كل من صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة 1296م، في كتابه "الوافي بالوفيات"، وشهاب الدين النويري المتوفى سنة 1332م في كتابه "نهاية الأرب في فنون الأدب". ونقل عنه مفضل بن أبي الفضائل في تاريخه "النهج السديد والدر الفريد في ما بعد تاريخ ابن العميد"، الذي أتمه سنة 1358م، وابن شاكر الكتبي المتوفى سنة 1373م صاحب كتاب "عيون التواريخ"، وعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير المتوفى سنة 1373م، صاحب كتاب "البداية والنهاية". ونقل عنه المقريزي المتوفى سنة 1441م في كتابه "السلوك لمعرفة دول الملوك". كما نقل عنه ابن قاضي شهبة المتوفى سنة 1448م في كتابه "طبقات الشافعية"، وابن تغري بردي المتوفى سنة 1466م في كتابه "المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي"[1].

والواقع أن تاريخ الجزري لم يصل إلى سوفاجيه كاملاً، ودخل محتواه في كتب أخرى، كما بيّن فيما سبق. وما نشره مترجماً إلى الفرنسية ليس إلا مقتطفات مما ورد في مخطوط

(1) Ibid., pp. III-VII

باريس رقم arabe 6789 ومخطوطين من قطبا Gotba لم يطلع عليهما سوفاجيه.

أما أسلوب الجزري، كما رآه سوفاجيه، فمسهب ورتيب. ولكنه احتوى على معلومات قيمة عن مزايا ومواهب الفقهاء الذين ترجم لهم، وذكر مقتطفات من أعمالهم الأدبية، شعراً ونثراً مسجوعاً. يقول سوفاجيه عن ترجمته للكتاب: "ولذا فضلت تقديم الكتاب بالفرنسية، بصيغة مكثفة بقدر الإمكان، بحيث يزود القارئ بكل المادة التاريخية المستعملة، ويشذب كل ما كان مهملاً، حسب درجة الأصالة والجدة للتوثيق بترجمته حرفياً (مع ذكر، في كل مرة، الكلمات العربية المهمة)، أو تحليل بإرجاع كل حالة إلى مصادرها المناسبة"[1]. وقد أعد ترجمته هذه للنشر في نيسان/ أبريل 1947 وصدرت في سنة 1949.

7. مقتطفات من كتاب "كنوز الذهب" لسبط بن العجمي[2]

ترجم جان سوفاجيه مقتطفات من كتاب "كنوز الذهب في تاريخ حلب" لمؤلفه أحمد بن إبراهيم بن سبط بن العجمي، المولود في حلب سنة 818هـ/1415-1416م، والمتوفى سنة 884هـ/1479-1480م.

(1) Ibid., pp. VIII-IX

(2) Jean Sauvaget, Les Trésors d'Or de Sibt Ibn Al-Ajami (Matériaux pour servir l'histoire de la ville d'Alep), Tome II, Institut Français de Damas, Beyrouth, 1950.

والمقتطفات هي الفصول الأخيرة من الكتاب، بدءاً من الفصل السادس وحتى الفصل الحادي عشر. يحتوي الفصل السادس على الخصائص العجيبة والطلاسم والمواقع داخل أسوار حلب وخارجها وفي ريفها: إنطاكية وبابيلا وجندراس والحرما والسخنة وإيدسة وشيخ والعمق وعين جارا وعنتاب والفوعة وكفر نجد ومنبج ومعرة وياعو ويحمول. ويتضمن هذا الفصل العجائب التي حدثت في هذه المدن والقرى. ويحتوي الفصل السابع على تراجم موجزة جداً عن الحكام المدفونين في حلب وريفها من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الميلادي. ويدور الفصل الثامن حول أحداث استثنائية جرت في ريف حلب منذ سنة 818م حتى سنة 1432م. أما الفصل التاسع فيحتوي على هجمات البيزنطيين على حلب وريفها منذ سنة 860م حتى سنة 1000م. وتضمن الفصل العاشر المساجد الكبرى والمدارس والأديرة والزوايا والمقابر والأضرحة والأربطة والخانقاوات والتكايا والمشافي في حلب وخارج أسوارها. أما الفصل الحادي عشر فيدور حول أسماء شوارع حلب كلها وقلاعها وقصر العدل فيها وأبوابها وميادين الخيل ونهر قويق فيها[1].

يقع الكتاب في (178) صفحة من القطع المتوسط.

(1) Ibid., pp. 1-178

8. الأنظمة المالية العثمانية في الولايات السورية[1]

هذا أول كتاب يشترك في تأليفه جان سوفاجيه مع المستشرق المؤرخ الفرنسي روبير مانتران المختص بالتاريخ العثماني. يذكر مانتران في مدخل الكتاب أن سوفاجيه قد كلفه في تشرين الثاني/ نوفمبر 1947 أن يعد للنشر ترجمة مجموعة من الوثائق العثمانية الخاصة بسورية التي نشرها المؤرخ التركي عمر لطفي باركان. وتشمل مجموعة من المراسيم والقوانين والأنظمة التي تتعلق بالتاريخ الاقتصادي للإمبراطورية العثمانية.

ولا شك أن نشر هذه الوثائق يتيح للباحثين الحكم على المستوى التشريعي والعملي، والأسلوب الذي أدار به العثمانيون البلاد التي فتحوها؛ الإسلامية منها والمسيحية. وتشير هذه الوثائق إلى حرص الدولة العثمانية على الالتزام بالممارسات والعادات القديمة، وحماية السكان من ابتزاز موظفي الإدارة لهم، وعدم اضطهاد الفلاحين، وإتاحة الفرص لهم بالشكوى واللجوء إلى السلطات العليا بمن في ذلك السلطان. والتزمت الدولة العثمانية بالحفاظ على الخصائص الأساسية للمناطق التي ضمتها "مبرهنة على ليبرالية لا جدال فيها"، مع ضمان

(1) Robert Mantran et Jean Sauvaget, Règlements fiscaux Ottomans: Les Provinces Syriennes, Institut Français de Damas, Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien Maisonneuve, Paris, 1951.

السيطرة العسكرية والسياسية العثمانية عليها. ولا شك أن غاية الدولة من كثرة مواد الأنظمة المالية تأمين الموارد المالية بانتظام لخزينة الدولة. وحرصت أيضاً على أن تتطابق جميع فرماناتها وقوانينها وأنظمتها وتعليماتها مع الشريعة الإسلامية. ومنذ القرن السادس عشر جمعت الأوامر العثمانية في "مدونة مراسيم أو قانون نامة". وتعود السجلات الأولى للمراسيم إلى عهد السلطان محمد الفاتح في القرن الخامس عشر الميلادي. ولكن أهم هذه المراسيم تلك التي تعود إلى عهد السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر الميلادي، والمعروفة بالسجل. ومن الجدير بالذكر أن المراسيم لا تطبق إلا في عهد السلطان الذي أصدرها[1].

بيّن مانتران أن القسم الأكبر من الوثائق المنشورة في هذا الكتاب منقولة من كتاب عمر لطفي باركان، المنتقاة من خزائن أرشيفي اسطنبول وأنقرة. وأضاف المؤلفان إليها وثائق غير منشورة لدى باركان وضعها تحت تصرفهما. واستعمل المؤلفان قائمة من المراجع لتدقيق الأسماء والمعلومات الواردة في الوثائق العثمانية. وشرح المؤلفان المصطلحات الفنية الواردة في المراسيم والفرمانات والقوانين والأنظمة مثل: قيراط، وسهم، وفدّان، وعدّان، وعشر، وخراج.

(1) R. Mantran, Introduction, dans R. Mantran et J. Sauvaget, op. cit., pp. VII- XIV.

احتوى الكتاب على نظام ولاية دمشق الصادر سنة 955هـ/ 1548م، الذي شمل الضرائب والرسوم على المواشي، ورسوم الانتفاع، وضريبة العشر، وضريبة الخراج، ورسوم الجمارك، وعادة السمسرة، وعادة سوق الهال للفواكه والخضروات، ونظام الوزن على القبان، وعادة سوق الخيل، وعادة سوق العبيد (الرقيق)، ورسوم البيع والشراء في سوق الحلال (المواشي)، وسوق الحبوب، وعادة الحرير، وعادة شرطة الأسواق، ونتاج الصيد، والرسوم المفروضة على البضائع المصدرة إلى الخارج، والضرائب المفروضة على أهل الذمة المقيمين في الولاية، والرسوم المفروضة على خلايا النحل، والرسوم المفروضة على الأجانب من أهل الذمة المقيمين في الولاية، وضريبة الخمرة، وأخيراً الأشخاص والمؤسسات المعفاة من الضرائب والرسوم، وقائمة بالضرائب والرسوم الملغاة[1].

وتحت ولاية دمشق تندرج أنظمة ستة ألوية تابعة لها، هي: نظام لواء القدس، ونظام لواء غزة، ونظام لواء صفد، ونظام لواء نابلس، ونظام لواء عجلون، ونظام لواء اللجون. وتحتوي هذه الأنظمة على الضرائب والرسوم والعادات على ما سبق ذكره في نظام ولاية دمشق[2].

(1) R. Mantran et J. Sauvaget, op. cit., pp. 3-33
(2) Ibid., pp. 35- 94

والولاية السورية الثانية التي يحتوي الكتاب نظامها هي أسكلة طرابلس الصادر نظامها سنة 979هـ/1571م. وشمل هذا النظام الضرائب والرسوم والعادات المفروضة على سكان ولاية طرابلس وعلى التجار الأجانب والسفن الأجنبية التي ترسو في ميناء طرابلس، وعلى البضائع التي تحملها، ويتلوه "خلاصة نظام طرابلس السابق له" الصادر سنة 926هـ/1519-1520م. ويندرج تحت ولاية طرابلس أنظمة ألويتها الثلاثة: حماة وحمص وجبلة.

أما الولاية السورية الثالثة؛ فهي ولاية حلب، التي صدر نظامها المالي سنة 978هـ/1570-1571م، ويحتوي على الضرائب والرسوم والعادات المفروضة على الأشخاص والمواشي والمنتجات الزراعية والصناعية في الولاية أو المصدرة إليها، وعلى رسوم المرعى والتنقل ورسم الدخان. كما ورد نص النظام المالي السابق له، الصادر سنة 959هـ/1551-1552م، ونظام جبايات الضرائب في مدينة حلب الصادر بعدهما سنة 991هـ/1583-1584م. واندرج تحت ولاية حلب نظام سنجق (لواء) المعرة التابع لها[1].

(1) Ibid., pp. 97-119

9. قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها : وجهة نظر الاستعراب الفرنسي[1]

هذا الكتاب من تأليف ريجيس بلاشير وجان سوفاجيه، صدر في باريس سنة 1953، وترجمه إلى العربية الدكتور محمود المقداد، ونشرته دار الفكر في دمشق ودار الفكر المعاصر في بيروت سنة 1988. يحتوي الكتاب على (84) صفحة من القطع المتوسط. وهو في ثلاثة أقسام، يسبقها مقدمة المترجم، ونبذة عن حياة جان سوفاجيه بقلم ريجيس بلاشير، ونبذة عن حياة ريجيس بلاشير بقلم نيكيتا إيليسييف Nikita Elisséeff، وتمهيد يبين أن قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها قد استخلصت من خلال مجموعتين من المخطوطات العربية: الأولى "المجموعة العربية La Collection Arabe" التي نشرتها رابطة غيوم بوديه L'Association Guillaume Budé، والثانية "الوثائق المتعلقة بتاريخ الحروب الصليبية (النصوص الشرقية) Les Documents relatifs à l'histoire des Croissades" التي نشرها "مجمع النقوش والآداب L'Académie des Inscriptions et Belles- Lettres".

(1) Régis Blachère et Jean Sauvaget, Règles pour éditions et traduction de textes arabes, Paris, Société d'édition les Belles Lettres, 1953.

ويحتوي الكتاب على ثلاثة أقسام :

يتضمن القسم الأول الترتيبات المشتركة بين تحقيق المخطوطات وترجمتها، وهي: عنوان الكتاب واسم المؤلف والتطابق بينهما، والعناوين الشائعة، والمصادر التي تشمل مبادئ عامة، واختصار العناوين وكتابتها مع أسماء المؤلفين في فهرس المصادر الواردة في نهاية هذا القسم، وطرق الإحالة والعرض الطباعي[1].

أما القسم الثاني، فيحتوي على تحقيق المخطوطات من خلال تحقيق النص، ونظام الخط العربي، والاختصارات، وعرض النص العربي باستعمال علامات الترقيم والإملاء وترقيم الجمل، وبيان العلامات الإصلاحية المتعلقة بتحقيق النص وترتيبات مختلفة. ويتناول هذا القسم الحواشي من حيث مبادئها العامة، والوحدات النقدية، وتسمية المخطوطات، وكتابة الحواشي، والعرض الطباعي والزيادات على النص والفهارس[2].

ويدور القسم الثالث حول ترجمة المخطوطات بتمهيد والحديث عن الترجمة ومبادئها العامة، وترتيبات تفصيلية، وترجمة الكلمات التقنية والمصطلحات، وكيفية كتابة أسماء الأعلام، بما في ذلك أسماء الأشخاص وأسماء الأسر

(1) المرجع نفسه بالعربية، ص 9- 44.
(2) المرجع نفسه، ص 45- 62.

والسلالات الحاكمة، وأسماء القبائل والشعوب والطوائف والمذاهب الدينية والأسماء الجغرافية، وعناوين الكتب المذكورة في النصّ، والعرض الطباعي والترتيبات الطباعية والشواهد والعناوين والحواشي والمعجم والفهارس، من حيث ترتيباتها العامة والخاصة، وطرق الإحالة والخرائط، وحواشي الترجمة وفهرس المحتويات[1].

10. القصور الأموية في سورية : مساهمة في دراسة الاستيطان العربي في القرنين الهجريين الأول والثاني[2]

هذا الكتاب في أصله مجموعة أوراق وفهارس وملاحظات كتبها جان سوفاجيه من أجل إعداد دراسة مستقلة لجميع القصور الأموية في بلاد الشام، قام دومنيك سورديل Dominique Sourdel وجانين سوردين- تومين Janine Sourdel- Tomine بصياغتها على شكل كتاب، تضمن جميع ما كتبه سوفاجيه، وأضاف إليه ملاحظاتهما كمحققين للمخطوط وإعداده للنشر، بعد وفاة سوفاجيه.

يبدأ الكتاب بالحديث عن قصير عمرة في البادية الأردنية، الذي اكتشفه الرحالة النمساوي الدكتور ألويس موزيل Alois Musil

(1) المرجع نفسه، ص 63- 84.

(2) Jean Sauvaget, Chateaux Umayyades de Syrie, Contribution à l'étude de la colonisation arabe aux 1er et IIème siècles de l'hégire, Librairie Orientaliste, Paris, 1968.

سنة 1898م. وقد رأى موزيل أن الغرض من بناء هذا القصر على طريق غير تاريخي، ودون أن يكون لموقعه قيمة عسكرية، هو غرض سلمي لأمراء محليين وضيوفهم، وخاصة أمراء البدو الذين يستطيعون العيش في هذه المنطقة. وقد ذهب موزيل إلى أن الأنباط الغساسنة الذين كانوا في خدمة أباطرة بيزنطة بنوا مثل هذه المنازل الدائمة، ونصبوا حولها خيام أتباعهم من البدو العرب. وأن الخلفاء الأمويين الذين جاؤوا بعدهم لم يتصرفوا بصورة مختلفة. يقول موزيل في هذا الصدد: "نحن نعرف أن معظم الأمويين عرب من زمن قديم من محبي الفروسية والصيد والنبيذ والشعراء والمغنين والنساء...". وأنهم عرب الصحراء، خلفاء الغساسنة أكثر منهم خلفاء أباطرة بيزنطة، ومعظمهم مارس حياة شبه بدوية. ومن قصورهم في شرق الأردن "القسطل" و"الموقر" و"طوبة".

هذا التفسير الذي قدمه موزيل لبناء القصور الأموية في بلاد الشام المستند إلى شهادات عديدة منقولة من مصادر تاريخية عربية، تبناه فوراً المستشرقون الغربيون، أمثال ماكس فان بيركم (1863–1921)، وكارل هاينريش بيكر Carl Heinrich Becker (1871–1933)، وهنـــري لامنـس Henri Lammens (1868–1937) دون نقاش أو اعتراض. وذهب لامنس إلى أن البادية ريف الأمويين المعتادين على الحياة الحرة، وعلى هواء

الصحراء، من أجل التكيف على الإقامة المغلقة في المدن. وأيد لامنس في هذا الرأي المستشرق إرنست هيرتسفيلد Ernst Herzfeld (1871–1948)[1].

يرى سوفاجيه أن خلفاء بني أمية لم يكونوا بدواً، بل كان وصولهم إلى الخلافة نقطة تحول مهمة في تاريخ الدولة العربية الإسلامية. وكان من نتائج نقلهم عاصمة الدولة من المدينة المنورة إلى دمشق، وقوع الأوساط الحاكمة في الإمبراطورية الإسلامية تحت تأثير الحضارة البيزنطية، وغدت اللغة العربية لغة الإدارة والعملة المستعملة. وازدهر علم الحديث (السنة النبوية)، والتاريخ والشعر العربي التقليدي. وظهرت مدنية حضرية في روحها. وشيدت المباني الفخمة في الحقبة الأموية الممتدة بين سنتي 635 و750 ميلادية، أي منذ ولاية معاوية بن أبي سفيان على سورية (بلاد الشام) وحتى نهاية الدولة الأموية. كانت بلاد الشام الولاية الوحيدة التي تدار مباشرة من قبل الخليفة الأموي، ولذا لا يجوز مقارنتها مع الولايات الأخرى في الدولة العربية الإسلامية.

ولمعرفة تاريخ هذه الحقبة، انتقد سوفاجيه المصادر التاريخية العربية والمصادر التاريخية السريانية والبيزنطية (اليونانية)، لما فيها من معلومات ناقصة ومشوهة عن مؤسسات الدولة الأموية.

(1) Ibid., pp. 5-13

ولذا لجأ إلى كتب التراجم (السير) والوصف الجغرافي والتاريخ المحلي والمصادر الشرعية ودواوين الشعر والأدب، ولكن بحذر شديد كعادته. واعتمد بصورة رئيسية على التوثيق العلمي الأثري للمباني الأثرية التي تعود إلى الحقبة الأموية. فهو يقول : "إن عدد القصور الأموية التي بالإمكان دراستها كاف ومرتفع بحيث يمكن لدراستها أن تؤدي إلى نتائج إيجابية". وقد أخطأ المستشرقون في اعتبار بعض هذه القصور الأموية قصوراً رومانية أو بيزنطية[1].

شرع سوفاجيه في دراسة هذه القصور الأموية حسب مواقعها الجغرافية، بادئاً بتدمر والحماد التي تضم جبل أسيس (سيس)، وقصر الحاير الغربي، وقصر الحاير الشرقي، وقصر الأبيض، والكليبية، وقصر الصواب، وحليحلة، وبحرة، والبصيري، وخان المنقورة، وقصر البرقع. وفي منطقة مؤاب والبلقاء في شرق الأردن تناول سوفاجيه قصير عمرة، وقصير الحلابات، والقسطل، وقصر معان، والموقر، وأم الوليد، وقصر طوبة، وقصر الأزرق، وشبكة الضحاك.

في شمال سورية والجزيرة الفراتية اعتمد سوفاجيه على كتاب العالم الألماني إرنست هيرتسفيلد Ernst Herzfeld "رحلة علمية أثرية في منطقة الفرات- دجلة Archaeologischer

(1) Ibid., pp. 17-21

Reise in Euphrat-Tigris Gebiet"، وعلى كتاب رنيه موترد René Mouterde (1880–1961) وأنطوان بوادوبار Antoine Poidebard (1878–1955) "حدود قنسرين الرومانية الصحراوية: تنظيم الهضبة في سورية العليا Le limes de Chalcis, Organisation de la steppe en Haute Syrie romaine, Librairie Orientaliste, Paul Guethner, Paris, 1945". وفي سورية الداخلية درس سوفاجيه مواقع عين الجار، وخربة المنيا، وخربة المفجر، وقصر عتيقة، وموقع حوّارين[1].

يرى سوفاجيه أن بعض هذه القصور قد بنيت لتكون مسكناً لحاكم، ولكن العدد الأكبر منها ليست سوى مساكن خاصة فخمة بنيت على شاكلة قصور ملكية، وبعضها على شكل بيت بسيط. والطابع الجامع لحمايتها وترتيب محلاتها، ووجود الإسطبلات والمخازن فيها تدل على مبان لخدمة السكان، مهما كان مجرى الحياة التي يحيونها. وقاعات الاستقبال لا تحتل هنا مكانة خاصة ومهمة، والأرصفة تبين ذلك، وتدل على أنها كانت مسكونة في فصل سيِّء، أي في وقت الحاجة إلى العمال في وقت البذار والزراعة. وبعض هذه التجمعات السكنية التي تحيط بالقصر هي بلدات أو قرى تسكنها الأيدي العاملة. ونوع المساجد والحمامات، ووجود

(1) Ibid., pp. 22-44

المطاحن والمعاصر، كل ذلك يدل على أننا أمام بلدة ريفية يمارس أهلها الزراعة. وينتهي سوفاجيه إلى التأكيد أن هذه القصور والقرى الموزعة على بادية الشام، من شمالها إلى جنوبها، هي استغلال زراعي. وهي إقطاعات وامتيازات عقارية للأمويين ولأشراف العرب[1].

لقد اعترف محققا الكتاب ومحرراه بالنقص الوارد فيه؛ لأن هذه الأوراق التي جمعاها من أوراق سوفاجيه، لم تكن سوى مادة أولية لمشروع دراسة علمية واسعة للقصور الأموية في بلاد الشام[2].

(1) Ibid., pp. 44-45

(2) Ibid., pp. 45-52

الفصل الثاني
مختارات من كتابات سوفاجيه الفكرية والإبداعية

المختارات التالية من كتابات سوفاجيه الفكرية والإبداعية تعبر عن منهجه المميز في كتابة التاريخ العربي الإسلامي القائم على نقد المصادر العربية التي يختارها في دراساته التاريخية، وعلى حرصه على ترتيبها حسب مستواها التوثيقي وقربها من الحدث، أو كونها شهادة عيان، وتجنب المصادر التاريخية العامة التي تنقل الروايات عمن سبقها، والعناية بالنقوش العربية باعتبارها وثائق تاريخية أصلية، والاستعانة بها كمصدر تاريخي موثوق. ودراسة البقايا الأثرية للصروح والأبنية التاريخية. واعتبار التاريخ المحلي الخاضع للنقد العلمي من المصادر التاريخية الثرية بالمعلومات الدقيقة والتفصيلية. وفيما يلي هذه المختارات.

1- تمهيد كتاب "حلب: دراسة في تطور مدينة سورية منذ نشأتها حتى منتصف القرن التاسع عشر"

"من بين جميع المدن السورية، تعطي حلب لزائرها

أعمق انطباع. وللوصول إليها يقطع الزائر ساعات عبر منظر طبيعي رتيب لا حدود له: هضبة من الأرض الحمراء تتوالى على مدى البصر دون فرق في المستوى، ودون رؤية شجرة أو بركة ماء. ولا يوجد شيء يدل على وجود الإنسان سوى قرى كئيبة على تلال من الأرض، وقطعان الماشية التي تسير في الخلاء. وترتفع وتنخفض هنا وهناك موجات من المرتفعات والمنخفضات الأرضية، فتوقظ لدى المسافر الأمل في اكتشاف آفاق جديدة، ولكن وراء ذلك تمتد السهول المرهقة في رتابتها وفراغها. وفجأة تظهر حلب. ودون أدنى تغير في مشهد البلاد، يشعر المسافر بأطرافها وقمة إحدى ذراها الواطئة، ثم يكتشف فجأة تشكل واد واسع مغطى بالخضرة التي يعلوها الرذاذ. وحيث تعرض المدينة فوضى بيوتها الملونة بألوان زاهية ومغبرة، ومآذنها الرشيقة والمرقطة، وتسيطر عليها قلعتها الضخمة. يبقى الناظر مذهولاً أمام هذا المشهد المفعم بالفخامة القاسية الذي يضيف إلى مباغتتها الظاهرة شيئاً من الخيال. وفي نهاية مسافة مملة، وبشعور من الغبطة المدهشة يقترب المسافر من حلب.

وبمزية من أندر مزايا الشرق، تؤكد زيارة المدينة هذا الانطباع، حتى خارج أحيائها الحديثة التي بنيت بتأثير أوروبا... وقد يفاجأ المرء بإعجاب بالرشاقة الجميلة للبناء المعماري. فلا لبن على الملاط المشوه بالحفر، ولا شبر من الخشب

المتأرجح، ولا بناء من مواد متباينة منها الملاط. فالحجر المشذّب يسود المباني. والشوارع والصروح العامة أو المنازل الخاصة تقدم، دون تمييز، البناء الحجري الخالي من العيوب، والحجر الجيري المتماسك الذرات والمشذّب بالعناية نفسها في كل بناء. هذا الحضور الدائم للحجر يفتقر بدوره إلى الأشجار، وتغيب دوالي العنب التي تغطي الواجهات المحصورة بين الجدران الطويلة العمياء، والسدى المرصوفة بالبلاط والمغطاة بالقباب، حيث يقدم الشارع هنا منظراً عمرانياً أساسياً... وهنا نجد الطابع البارز لحلب. وهو الذي يوضح الزيارة الأسرع والأقل اهتماماً، والذي يجعل منها مدينة فريدة في الشرق كله، فلا اسطنبول ولا القاهرة ولا دمشق ولا بغداد ولا أصفهان أكثر بشاشة، وأكثر شهرة، وأغنى في ذكرياتها وفي صروحها الباسقة منها، ولا تقدم شيئاً مماثلاً على مداها كلها هذا الجمال المعبر عن القوة والرزانة، وهذا الجهد الساعي إلى الكمال المعماري.

إن معرفة أعمق بحلب تكشف طابعاً آخر لها أكثر فرادة أيضاً، هو النشاط المدهش لمركز المدينة. فالقصبة هي بذاتها موضوع إعجاب: بأسواقها الواسعة المدى التي تضم المتاجر على طولها الذي يربو على ثمانية كيلومترات، وعدد خاناتها واتساعها وأهميتها، وجمهور البائعين والمشترين الذي يتجمع

طوال اليوم، فيثير دهشة الزائر العارف بهذه الأمور في الشرق. ولكن هذا ليس إلا جانباً من حياة حلب الاقتصادية: فالأسواق الكبرى لا تحتوي إلا بائعي الأقمشة والسماسرة (الوسطاء)، بينما يتجمع أصحاب الحرف على أطراف القصبة، حيث يحتلون شوارع بأكملها، وغالباً على مسافات كبيرة، ويتبعثرون حتى إلى الضواحي البعيدة، حيث الأسواق المتخصصة التي أنشئت من أجل زبائن معينين. وهي ليست أقل تزوداً بالبضائع ولا أقل رواجاً من القصبة نفسها. وتتركز التجارة خارج الشوارع الكبرى، فالشوارع الضيقة والقصيرة التي تزين بيوت السكن تحمل في كل خطوة يخطوها المرء شهادة جديدة على كثافة الحياة الحرفية. وفي كل منها يحمل الصبيان على أكتافهم شلل الحرير، أو يقودون الحمير التي تحمل البضائع. وتُرى الخيطان الملونة منشورة على طول الحيطان لتجف، وقطع القطن الخارجة من أحواض النيلة، بينما تمتد الشرفات في كل مكان، تسمع ضربات الحائك القاسية، أو الصدى الواضح لمطارق صاقلي القماش. في كل شارع تكشف الأبواب المفتوحة عن أنواع من النشاط الصامت. وسوق الهال بعقوده المليئة بالصابون حيث يسخن الزيت ببطء لفصل الرغوة السميكة الخضراء، ومعامل النشا، ومعاصر اللباد، ومعامل ضغط

القماش، ومخازن الحبوب، وكومات الهرس التي تديرها البغال. وفي الساحات الواسعة تصنف النساء حبوب العفص، أو تمشط الصوف. وفي طوابق الخانات الكبيرة تعد التخفيضات في مهن النسيج. وفي الأحياء الأقل حيوية لكل تقاطع للشوارع سوقه الصغير المظلل بالعرائش، يذكّر على استحياء بالنشاط البيئي. وفي كل مكان يرى مشهد العمل، حتى في الأماكن غير المتوقعة: مثل خندق السور حيث يتجمع قصابو الحجارة وزراع البقول، وحيث يكتشف المرء فجأة مدبغة واسعة، ومقابر، وقلاعاً من الحجارة الضخمة، ويقيم صانعو الحبال أدواتهم البدائية.

وبسرعة جداً تفرض هذه المزايا الخاصة على العقل مشكلة: ما هو سبب هذا الثراء والحيوية؟ وكيف نفسر أن حلب قد أصبحت أوسع وأكثف سكاناً وأجمل وأكثر نشاطاً، وأغنى من جميع المدن السورية؟ وكيف اكتسبت إحداها، في بلاد تتعدد فيها التجمعات الحضرية على الدوام وبصورة استثنائية، تفوقاً معترفاً به... ومن يتأمل دمشق أو إنطاكية، فإن الخصوبة الاستثنائية لما يحيط بهما والدور الذي لعبته في تاريخهما، تبدو من الأسباب الكافية لنموهما كمركزين حضريين. ولبيروت وطرابلس ميناؤهما، وللقدس أماكنها المقدسة، وقد نمت حمص وحماة باعتبارهما نقاط مرور إجبارية. هنا يتوه العقل

في الحدس وتخمين الدوافع التي قادت الإنسان إلى اختيار هذا الموقع القفر لبناء مدينة عليه. لماذا وكيف تشكل تجمع سكاني في منطقة محرومة ومقفرة؟ لماذا وكيف أصبحت هذه المدينة (حلب) على مستوى عاصمة مأهولة بحوالي ثلاث مئة ألف نسمة، كما نراها اليوم بأعيننا؟

هذه هي الأسئلة التي أطرحها، والتي لدي أجوبة عنها في هذا الكتاب"[1].

2- المصادر والمراجع لدراسة المسجد النبوي في المدينة المنورة

"بخلاف مؤلفي كتب التاريخ العام، الذين لم يعيروا مسجد المدينة إلا اهتماماً ضئيلاً، فإن كتب التاريخ المحلي قد ركزت على صرح يعبر بصورة جلية عن دور من الطراز الأول استحقه في المدينة (المنورة) في بدايات الإسلام. وهو موضوع رئيسي تعتز به المدينة؛ لأنه يذكّرها على الدوام بمجد مضى، حاضناً قبر النبي محمد (ﷺ) الذي تطورت فيه الممارسات الدينية، التي لم تتوقف أهميتها عن النمو في حياة

(1) Jean Sauvaget, Alep: Essai sur le développement d'une ville syrienne, des origines au milieu du XIX^{ème} siècle (Ouvrage Publié avec le concours de l'Académie des Inscriptions et Belles- Lettres, Fondation de Clercq), Paris Libraire Orientaliste; Paul Guethner, 1941, pp. 2-5.

الجماعة المؤمنة. ومسجد النبي ينبغي، بالضرورة، الاعتناء به من جانب الإخباريين المدنيين عناية خاصة جداً. فلدى هؤلاء الإخباريين يؤمل وجود معلومات عنه مؤكدة ووافرة ومفصلة تزود الباحث بما يحقق التعمق في دراسته، ويقدم مادة لإعادة دراسته دراسة علمية أثرية. فكيف لا نتجه نحو هذا المصدر من التوثيق قبل التفكير بأي شيء آخر.

ويستحق أدب الرحلات أيضاً الاطلاع عليه بعناية أكثر مما فعله كريزويل. وإذا كان بعضهم لا ينقل إلّا معلومة في الكتب، لتغطية غياب الملاحظات الشخصية، فإن لدينا مؤلفين راقبوا ما حولهم، وتركوا لنا روايات مليئة بالملاحظات الأصلية التي أكملت ما ورد في المؤلفات التاريخية المحلية، وقدمت لنا وجهة نظر مختلفة. ولم يبق إلا اختيارها بدلاً من تركها للمغامرة. فالمسجد الكبير في المدينة (المنورة) ليس مجرد مبنى لا أهمية له. إنه مكان مقدس، وهدف للحجاج المسلمين. ودراسته يجب أن تفيد أيضاً من كتب العبادة؛ مثل أدلة الحجاج، ومجموعات الصلوات، وكتب المدائح النبوية، والكراسات التي تعدد فضائل المدينة المنورة. وهذا الأدب الخاص قادر على أن ينقل إلينا معلومات غزيرة ودقيقة. ولكن لا يوجد من هذه المؤلفات مخطوطات ممتازة بصورة مؤهلة لتزويدنا بالدراسة العلمية الأثرية. وهي مصادر ثمينة جداً لا يمكن أن

تستعمل دون حذر، بسبب الطابع العادي أو الخيالي للكتب التي من هذا النوع، ولكن ليس من حق الباحث رفضها، وخاصة إذا كانت تتعلق بصرح، اختفى دون أن يترك أثراً مادياً، ولم تعط النصوص إلا صورة مجردة جداً عنه.

هذه هي، كما نعتقد، مصادر المعلومات التي يجب الاطلاع عليها. وهي الأدلة الموثوق بها جداً، والتي تقدم لنا قائمة بالمراجع الحقيقية للموضوع. ولكن بعمل هذا الأمر علينا أن لا ننسى أن مسجد المدينة موجود بسبب احتضانه قبر إنسان عظيم يهم عالم الإسلام كله. وإلى جانب المؤلفين العرب الكثر والأقدم، فلدى المؤلفين الفرس والأتراك أشياء نتعلم منها عن مكان مقدس زاره العديد منهم بصفتهم حجاجاً.

لدراسة هذه المصادر، فإن إعداد قائمة بها من شأنه أن يسهل استعمالها".

وضمت القائمة محمد بن الحسين بن زبالة صاحب كتاب "تاريخ المدينة الذي أنجز في صفر 199هـ/ أيلول/ تشرين الأول 814م" ومحيي الدين محمد بن محمود بن النجار صاحب كتاب "الدرة الثمينة في أخبار المدينة"، والمتوفى سنة 890م، وجمال الدين محمد بن أحمد المطري المتوفى سنة 1340م صاحب كتاب "التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار

الهجرة"، وزين الدين المراغي المتوفى سنة 1365م صاحب كتاب "تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة"، ومخطوط عبدالله بن عبد الملك المرجاني المتوفى سنة 1299م، صاحب كتاب "بهجة النفوس والأسرار في تاريخ دار هجرة المختار". وتضم القائمة (24) مصدراً[1].

3- من مقدمة كتاب "مؤرخون عرب، صفحات مختارة ومترجمة"

"هذا المجلد لا يدعي أنه يقدم أجمل صفحات المؤرخين العرب الذين كانوا على الأقل متابعة للأحداث الكبرى في التاريخ الإسلامي، أو تقديم مشهد لحضارة الإسلام. إنه يستهدف فقط تقديم صورة متواضعة، ولكنها أكثر فائدة ربما، وبالتأكيد أسهل على الاستعمال. وتعريف أولئك الراغبين في حب الاطلاع على الأشياء الغريبة في الشرق، والطلبة وغيرهم، بالمؤلفات التي ألفها المؤرخون العرب، وبنوع التوثيق المتوقع في مصادر مروية معينة. واختيار النصوص في المقدمة هنا، ليست في مجملها إلا توضيحاً لكتاب "مدخل إلى تاريخ الشرق الإسلامي" الذي صدر مؤخراً في هذه المجموعة.

---

(1) Jean Sauvaget, La Mosquée Omeyyade de Médine: Etude sur les origines architecturales de- la Mosquée et de la Basilique, Institut Français de Damas, Vanoest, Les Editions d'art et d'histoire, Paris, 1947, pp. 24- 27.

وبهذا التصور، فإن هذه المدونة للمقتطفات لا تعني تعليقاً تاريخياً معمقاً أو حديثاً مقصوداً، أو شرحاً موجزاً أو محدوداً، أو في حده الأدنى إيضاحاً لبعض التفاصيل أو بعض الإلماحات المعينة التي لا تتيح الفهم المباشر.

يحتوي الكتاب على ملحق لاستعمال غير المستشرقين، وقائمة بالمصطلحات الفنية والإشارات المختصرة إلى الشخصيات المشهورة والأسماء الجغرافية التي من المفروض أن تكون معروفة لدى المستعربين غير الخبراء؛ مثل الكلمات والأسماء الموضحة في هذا الملحق. وقد وردت في النص وعليها نجوم.

وباستثناء واحد منها، جميع المقتطفات المقدمة ترجمت مباشرة عن الأصل. وهي عدد من القصاصات تهدف إلى تجنب الإطالات المتعارضة مع مقترحنا في مراعاة الحالة السيئة للنص. هذه القصاصات مشار إليها بنقاط تعليق. وقد تعرضت هنا وهناك إلى تعديلات تفصيلية غير خطيرة: مثل إدخال كلمات بين قوسين توضيحية تحل محل ملاحظة تكتب في أسفل الصفحة، والانسجام والتبسيط لأسماء الأعلام والأشخاص الذين ترد أسماؤهم بصيغ متعددة، وبتعقيد في قراءات كثيرة.

أما كيفية كتابة الأسماء والكلمات الشرقية، فقد تمت حسب النظام المتبع لدى الجمهور غير الاستشراقي، وجمعية غيوم بوديه، وأكاديمية النقوش والآداب. والهدف المقصود

هنا لا يستدعي مزيداً من الدقة. وتميزت الأشعار بتقديم طبوغرافي مناسب (بحروف مائلة أو بحروف صغيرة وبحرف (b) بالفرنسية يقرأ ابن أو (fils de)"[1].

4- أربعة مراسيم سلجوقية (النقوش العربية كمصدر وثائقي لدراسة التاريخ)

"أعني هنا بمصطلح "سلجوقي" ليس بالمعنى الضيق للأسرة السلجوقية الذي يعطى لها عادة، وإنما بمعنى واسع جداً ومشروع مليء بالوقائع التاريخية، بعيداً من اقتصاره فقط على نسل طغرل بك. وأوسّع هذه التسمية لتشمل الأسرة الصغيرة التي استقرت في الشرق الأدنى في أعقاب الفتح التركي في القرن الحادي عشر، الذي تم فيه الاعتراف بالسيادة السياسية لسلاطين أصفهان وخلفائهم، وبأنهم تبنوا مؤسساتهم، وانتهجوا السياسة نفسها لهؤلاء في مناطق الإسلام السني والخلافة. وإذا كان هذا الانحراف في الاتجاه يشكل بعض العقبات، فإنه يقدم فوائد أقل بالتأكيد، ويشعر فوراً بالوحدة العميقة التي شهدتها جميع الدول التركية في الشرق الأدنى في

(1) Historiens Arabes, Pages choisies, traduites et présentées par Jean Sauvaget (Initiation à l'Islam, Collection publiée sous le patronage de l'Institut d'Etudes islamiques de l'Université de Paris) Libraire d'Amérique et d'Orient, Adrien- Maisonneuve, Paris, 1946, pp. 5- 6.

العصور الوسطى في موضوع المؤسسات الحكومية.

إن النقوش العربية الأربعة موضوع دراستنا هنا: أولها باسم زنكي، والثاني باسم أورتوكي Ortokide، والثالث باسم بوري Bouride، والرابع باسم أيوبي. وتنتظم هذه النقوش في إطار الحضارة السلجوقية كما عرفناها سابقاً.

النقش (أ)

النقش بالخط الكوفي، وهو يعلو أحد أبواب السور المحصن لدمشق المدعو باب الصغير، كان قد نشر، حسب نسخة من المستشرق موريس فان بيركم Maurice Van Berchem، وحُسّن بإعادة نظر أولى، ولكن مع بعض عدم الدقة في التفاصيل، ونقص في جملة لم أعرف سده قبل النشر. ولما أتيح لي إعادة النظر في النص، أصبح ممكناً لديّ أن أصوغ المحتوى كاملاً، بسبب أهمية الوثيقة. ولذا فإنني أعيد كتابتها هنا بصيغتها الصحيحة، بدلاً من الاقتصار على الإشارة إلى التصحيحات اللازمة للنسخة السابقة. وليس باستطاعتي، لسوء الحظ، أن أقدم وسيلة أخرى للسيطرة سوى رسم يدوي مرفوع بدقة:

"بسم الله الرحمن الرحيم. أمر مولانا الملك العادل العالم العارف المؤيد المظفر المنصور نور الدين، ركن الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، أبو القاسم محمود بن

زنكي بن آق سنقر، خلَّد الله ملكه، بإزالة حق التسفير عن التجار المسافرين إلى العراق والقافلين منها إلى دمشق حرسها الله، وتعفية رسمه وإبطال اسمه والمنع من تناوله، والمطالبة بشيء منه إحساناً إلى الرعية ورأفة ومنًّا عنهم، وعاطفة وتقرباً إلى الله تعالى، وتقديمة بين يديه يوم يجزي الله الذين أحسنوا بالحسنى، ورسم لكل صاحب ووالي (والٍ) ونائب أنه لا يذكر ولا يأوّل فيه، بحيث يستمر ذلك في تطاول الأيام، فمن بدّله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه، وذلك في رجب سنة إحدى وخمسين وخمس مائة". الموافق إيلول/ سبتمبر 1156م.

الحجر الموجود عليه النقش عال وسيِّيء الإنارة، اسودّ بالدخان، ومغطى بالغبار وببيت عنكبوت، فكان من المتعذَّر عليّ تصويره، وأن أقوم قبل التصوير بتنظيفه، وهذا خارج إمكانياتي. أما السيد فان بيركم فقد صوّر النقش فظهر عليه النقص واضحاً.

ملاحظات فنية دقيقة

لا تكمن أهمية هذا النص في الإجراء الإداري والمدى المحدد الذي يحتفل به، وإنما في الدلائل التي يحملها حول البلاغ الرسمي لديوان الأختام في ذلك العصر الذي لا نعرف عنه الكثير.

النقش (ب)

النقش الثاني وجد في ساحة جامع هاربوت Harput الكبير على الحائط الشمالي. وهو مصاب بتلف جزئي ومحفور بصور سيئة، كما أنه لم يصن بالحبر الأسود، وكل الظروف تبين أن النسختين اللتين نشرتا منه لم تؤديا إلى صياغة نصه بصورة نهائية. وبنقصه، هذه هي الأسطر الرئيسية كما قرئ آنذاك:

"... ما أمر بإنشائه تقرباً إلى الله تعالى وابتغاء مرضاته الأمير... أبو الحرث قرا أرسلان بن داود... أدام الله سلطانه، وهو التاج والعسر على ا... وعند؟ بأمر سده؟ لعن الله من يعود الله، وذلك في سنة إحدى وستين وخمسمائة".

يلاحظ في هذه الكتابة تنافران صوتيان:

1- صيغة التمني التي تتلو اسم الحاكم يجب أن تختتم بسلسلة من الألقاب الشرفية، حسب الاستعمال الذي لا نرى فيه اتفاقاً. أو أن هذه تبدو مستمرة وبصيغة شاذة لا تتفق مع المحتوى.

2- صيغة اللعنة التي نقرأها في النهاية ليست في مكانها في نقش تذكاري لبناء صرح: في العادة لا توجد إلا في المراسيم الموجهة إلى المخالفين المحتملين.

إن إعادة نظر دقيقة لنسختي ولختمها أتاحت إخفاء هذه الشواذ بإبدال مقاطع أحدثت صعوبات في القراءات الجديدة التي أعطت نصاً منسقاً ومتفقاً مع الصيغة المعتادة.

في السطر العاشر بدلاً من "التاج" نسخ وختم يحملان ببروز "الباج" رسم السوق. وكلمة "العسر" لا معنى لها هنا. والصيغة البديلة الصحيحة "العشر" (ضريبة العشر).

في السطر الحادي عشر، بدلاً من "وعند" يجب أن تحل محلها "وغير" بحيث تصبح "وغيرها"؟ من فيئة. والكلمة غير المفهومة هذه تحل محلها كلمة "فيه".

وأخيراً فإن التصحيحات المضافة في السطرين التاليين تضع النقش كمرسوم يحمل إلغاء ضرائب مالية معينة. والكلمة الأخيرة من السطر الأول يجب أن تكون "بسم الله الرحمن الرحيم. ما أمر بإزالته تقرباً إلى الله تعالى وابتغاء مرضاته الأمير الإسفهسلار الكبير الأجلّ السيد العادل المؤيد المنصور المظفر المجاهد العالم فخر الدين جمال الإسلام، ظهير الإمام نصير الأنام، عضد الدولة جلال الملة، تاج الأمة شمس الملوك عز السلاطين، شرف جيوش المسلمين نصرة المجاهدين، قاتل الكفرة والمشركين، فلك المعالي، سيف الخلافة، سيد الأمراء أبو الحرث قرا أرسلان بن داود بن سكمان بن أرتق، معين أمير المؤمنين، أدام الله سلطانه. وهو

الباج والعشر على... وغيرها من فيئه، لعن الله من يعود فيه، وذلك في سنة إحدى وستين وخمسمائة". الموافق 1165-1166م.

يجب الامتناع عن البحث في هذا النقش عن تاريخ بناء الجامع الكبير في هاربوت. من المحتمل أن يكون قد بني في السنة نفسها حيث نجد على جدرانه مرسوم قره أرسلان، أي 561هـ/1165- 1166م، ولكن من المحتمل أيضاً أن يكون تاريخ بنائه قبل ذلك بسنوات.

النقش (ج)

النقش الثالث لم ينشر من قبل، وليس في محله، وإنما كان على أحد جدران الجامع الأموي في دمشق، ونزع منه في تاريخ مجهول. واحتفظ به في مخزن في الجامع، تمكنت من الوصول إليه في نيسان/أبريل 1945، بفضل من دائرة الأوقاف الإسلامية.

والوثيقة محفورة على قطعة رخام أبيض بقياس 70×30 سنتمتراً، مهشمة من أطرافها الأربعة، والحروف المكتوبة عليها بخط نسخي قديم متقنة جداً.

وفيما يلي النص المكتوب حسب السطور:

1- .... اراله ... مسه ودا .....

2- .... الكبير العالم العادل .....

3- .... أم تاج الدولة علاء أمـ .....

4- ....م جيوش المسلمين مختص ا.....

5- .... أبو المظفر ابق بن محمد بن .....

6- .... مالى وتقرباً إلى ما يرضيه .....

7- .... وتود لو أن بينها وبـ .....

8- .... ورفقا بهم واحسان .....

9- .... عوام فمن قصد تعيـ .....

10- .... لله مطالبه ومسايا .....

11- .... ثمه على الذين يبدلونه ا.....

تفرض القراءة الأولى للنقش بعض المجاملات. السطر الحادي عشر فيه بقايا آية قرآنية تذكر عادة في النقش الذي يحوي أمراً شرعياً؛ مثل قرارات وقفية ومراسيم، كوسيلة لإخضاع الناس الذين يريدون تعديل الإجراء المتخذ. ووجود هذه الآية موجه إلى الذين يريدون إعادة النظر فيه في نهاية السطر التاسع "فمن قصد تغييره".

في السطر السادس يجب قراءة "الله تعالى". وفي السطر التالي نجد آية قرآنية".

توصل سوفاجيه إلى الصيغة الكاملة للنقش كما يلي:

"الأمير الإسفسهلار الكبير العادل المؤيد المظفر المنصور مجير الدين عضد الإسلام، ناصر الإمام، تاج الدولة، سيف الملة، محيي الأمة، شرف الملوك، عماد الأمراء، كهف المجاهدين، زعيم جيوش المسلمين، أبو سعيد أبق بن محمد بن بوري بن أتابك، سيف أمير المؤمنين". وأكمل ابن القلانسي بما جاء في كتابه "المذيّل في تاريخ دمشق" النص بالعبارات التالية:

"في يوم الجمعة التاسع من رجب سنة 544هـ قرئ المنشور المنشأ عن مجير الدين، بعد الصلاة، على المنبر، بإبطال الفيئة المستخرجة من الرعية، وإزالة حكمها وتعفية رسمها، وإبطال دار الضرب، فكثر دعاء الناس له وشكرهم".

الكلمات المفقودة من قطعة الرخام نجدها في المرسوم الذي ذكره ابن القلانسي الصادر عن أبق".

واستنتج سوفاجيه من هذا النقش أن الخط النسخي العربي كان مستعملاً منذ سنة 464هـ/1071- 1072م.

النقش (د)

في سوق الخيل بدمشق وجدت مسلة (نصب تذكاري) من حجر البازلت عليها نقش. وقد اختفى، ولكن نسخة منه أخذت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حفظت لنا بصورة تقريبية محتوى النص، وهو:

"لما كان بتاريخ رابع وعشرين ربيع الأول سنة أربع وسبعين وخمسمائة أمر مولانا السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب، برفع ضرر ردم الأنهار الجارية في دمشق لعدم حصول الغرق في سنة من السنين من مال خراج الغوطة".

شك سوفاجيه في ترجمة المستشرق غاستون فيت Gaston Weit (1887- 1971) لهذا النص، وترجم سوفاجيه النص كما يلي:

"لما كان بتاريخ رابع وعشرين ربيع الأول سنة أربع وسبعين وخمسمائة، أمر مولانا السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب بإلغاء كل سنة أموال الضرائب العقارية في الغوطة والأضرار الناشئة عن إعاقة جريان النهر الجاري في دمشق حتى لا يسبب غرقاً". واستشهد سوفاجيه بما ذكره المؤرخون عن آثار فيضان نهر بردى وفروعه على دمشق والغوطتين الغربية والشرقية. وكانت أكثر المناطق عرضة للغرق هي الواقعة على الضفة اليسرى للنهر، ومنها سوق الخيل الواقع تحت قلعة دمشق[1].

(1) Jean Sauvaget, Quatre Décrets Seldjoukides, (Publications de l'Institut Français de Damas) Beyrouth, Institut Français de Damas, 1947, pp. 7- 34.

5- من محاضرة الافتتاح التي ألقاها سوفاجيه في معهد فرنسا في 15 آذار/ مارس 1946 : كيف ندرس تاريخ العالم العربي.

"وهكذا فإن تاريخ العالم العربي، كما نتصوره، يتجاوز إطار العالم العربي اليوم، ويضطرنا إلى إدخال الشعوب الإسلامية الأخرى فيه، التي لا يمكن تجاهل دورها دون التشويه الكامل للمنظور التاريخي. وحول هذا التقليد الخليفي الذي يكوّن نوعاً ما محور الإسلام في العصر الوسيط، والجوانب الرئيسية للحضارة الإسلامية كلها تدور دراستنا.

لن نهتم بالأحداث الدبلوماسية والسياسية أو العسكرية الكبرى، فقد تناولها العرب بالدراسة تناولاً كافياً تقريباً. بالإمكان تعديل ما عرضوه، وتصحيح أخطائهم، أو الرد على آرائهم المتحيزة. ولكن لو قصرنا مهمتنا على هذا فالحصيلة النهائية ستبدو خارج مدى الجهود والزمن الذي سنخصصه لهذه الغاية. ونحن سنلتزم بكل هذه الجوانب من النشاط الإنساني التي أهملها مؤلفو العصور الوسطى، والتي تشكل اللحمة الصامتة للتاريخ، التي تحتل اليوم المقام الأول في حب استطلاعنا: أي المؤسسات الحكومية والخاصة، والحياة الاقتصادية والتقنية، والجوانب المادية في الحضارة والنشاط الفكري الذي يهيمن على كل شيء. والخلاصة سنبحث في

متابعة الناس عن قرب في حياتهم اليومية وفي أعمالهم واهتماماتهم، دون أن نغض النظر (مثل الغربيين الذين يعنون بالثقافات المختلفة عن ثقافتهم) والتحولات التي خضعت لها أنماط الحياة الاجتماعية والمثل التي نادت بها عبر القرون. وبإيجاز سنحاول هنا تتبع تطور حضارة.

ستكون المهمة شاقة وأحياناً مرهقة، لأنه يجب علينا أخذ الأسئلة من أساسها، وذلك باعتبار جميع المصادر السابقة غير موجودة، ومن المؤكد عند اعتبار عددها الضئيل، ونعرف أيضاً أية فائدة تافهة حصل عليها علماء الاستشراق من هذه المادة، لا يمكن إلا أن يعجب المرء ضخامة الأعمال القيمة التي جمعها المستشرقون عن حضارة الإسلام في قرن ونصف قرن تقريباً. ولكن نستطيع، دون أن يكون من مهمتنا تبويب المعطيات المكتسبة، فهذه الأعمال لا تمثل إلا إنجازاً محدوداً. كما أن الكثير منها قد تجاوزه العلم اليوم بسبب قدمها النسبي، وخاصة أن الكثير منها ينقصه منهج لم يعد مستعملاً بالنسبة إلينا. إنهم يقدمون، في الواقع، نظرة أدبية للتاريخ، تقوم كلياً على النصوص الأدبية عن أعمال الحوليين والمؤرخين العرب في العصر الوسيط. فليس بالنصوص المعروفة جيداً يمكن كتابة التاريخ، إذا كان الهدف الصرامة والدقة العلمية. يجب الاعتماد على الوثائق الأصلية غير المنحازة والمؤكدة.

ولعدم القدرة على التعويل على قطع الأرشيف (لأن عددها المتاح لنا الاطلاع عليه ضئيل)، اتجه المستشرقون نحو المؤلفات المشهورة في الأدب التاريخي العربي. ولكن هل تحتوي هذه المؤلفات الحقيقة؟ فهي تواريخ عامة مكتوبة بالتراكم، وأحياناً هي مؤلفات مبسطة توجز وتنظم النص لمؤلف مشهور. وهذا يعني أن الرغبة في التوثيق لدى هؤلاء المؤلفين لا تسفر إلا عن معلومة من الدرجة الثانية أو الثالثة، غير مناسبة تماماً لإعلامنا بدقة؛ لأن مؤلفيها لم يحفظوا سوى ما تمكنوا من عرض رأيهم أو ما يوافق جدالهم. وهذا ما أغراهم، أو ما بدا لهم جديراً بنقله إلى من جاء بعدهم. جميع هذه المؤلفات لا تقدم لنا سوى تفسير فردي – ربما كان خطأً أو منحازاً – للوقائع التاريخية وليس للوقائع الصحيحة المقدمة في الحالة الفجة بكل موضوعية. وهذه ليست الوقائع التي يجب على المؤرخ أن يعرفها. في المنهج السليم يجب عدم الاعتماد على مؤلفات مماثلة أو على هؤلاء الناسخين من مستوى رفيع مثل ابن الأثير أو المقريزي، اللذيْن كثيراً ما ينقل عنهما، ما دام بالإمكان الرجوع إلى مصادرهما، وبالتالي الحكم على الأسلوب الذي اختاراه واستعملا توثيقهما. كثير من المؤلفات مفقودة اليوم، وهي حالة نادرة ونادرة جداً؛ لأنه ما دام بإمكاننا القيام بمقارنة النصوص فليس من فائدة لهذه المؤلفات العلمية التي

انصرفنا عنها بقدر المستطاع، لتفضيلها على المؤلفات الأقل أهمية والتي تتفق مع مشروعنا.

أود القول دون عناء، إن هذه المؤلفات، في الغالب، سيئة الصياغة والكتابة، وقد قيّمها العرب بقسوة بسبب طابعها هذا، وعدم إقبال العرب عليها. إن مؤلفيها لا يقدمون لنا أفكاراً وآراء في محتواها. ولكنهم سجلوا، دون تكلف في الأسلوب، الأحداث التي وقعت في حياتهم في المدينة التي كانوا يقطنونها، ويذكرونها بطريقة تشبه ما يرد من تقارير في أيامنا بالصحف الريفية. وأعتقد مثلاً (حتى لا أقتبس نصاً مطبوعاً) أن المجلدات الثلاثة التي روى لنا فيها ابن إياس عن الحياة في القاهرة في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي. وقد أثار اهتمامهم، ليس الصدى البعيد جداً بما جرى في الأوساط الحاكمة (حول هذه النقطة نملك مصادر موثوقة أكثر)، وإنما أخبار الشارع، وأوامر الشرطة، والإجراءات المالية، وسرقات الجلد، والاضطرابات، ونوعية المحاصيل، وأسعار المواد الغذائية، وأسعار النقد، وحتى الشائعات المحتملة التي كان يتداولها الناس في الأسواق. وبالتقاط هذه الأخبار، بصبر، في مؤلفات مماثلة، والمعطيات العددية، والتفاصيل المعتادة التي تتكاثر هنا، والتي لدينا بعض الضوء نلقيه على الحياة الاجتماعية في إسلام العصر

الوسيط. وقد نبالغ في القول إن النصوص التي ننتظرها ليست تلك التي وقعها المؤلفون المشهورون، وإنما تركت للإخباريين المحدودي الفكر.

هذه المصادر ذات الأخبار الموثوقة، حتى الآن، وهنا أكرر، مجهولة جداً، ستصبح هي التي نتوجه إليها، دون أن ننسب إليها إلا قيمة المساعدة وتقاطع المعلومات.

نحن لدينا، في الواقع، طبق منوّع تماماً من النصوص التي تحتاج إلى تصنيف، ومقارنتها بالمؤلفات ذات الطابع الأدبي، وبوثائق الأرشيف، وبذلك يكبر العدد غير الكافي من هذه الأخيرة. وهذه هي التي كتبت لجمهور محدود، أو ربما بدون أية نية للنشر، بعنوان مذكرة شخصية تتضمن معلومات لا مبرر للشك في صحتها. وبذلك يمكن استعمالها كما هي دون أي إلزام بكل الخطوات الأولية التي يفرضها استعمال الأخبار، وبإمكان المرء تقدير قيمة شهادتها بعدالة. وهذه حال كل هذه الأدلة التي تتصل بالمعلومات الغنية الخاصة بموظفي الدواوين التي تقدم أحياناً بصيغة "أنموذج Formulaire" يبين أسلوب عمل لإنتاج أشياء، أو بصيغة كتب ذات طابع موسوعي، وأحياناً أخرى، بصيغة كتب أكبر (تشمل 14 مجلداً) تعرض بصورة منهجية وبالتفصيل كل ما يجب على السكرتير معرفته من أجهزة حكومية والممارسة

الإدارية. والعديد من هذه المؤلفات لم ينشر بعد. وهذا شيء مؤسف ومثير للعجب. وسأقتصر هنا على ذكر مثالين مهمين أعرفهما جيداً، في هذا المخطوط الذي يروي أمير عربي من أواخر العصر الوسيط لورثته وحدهم قصة أسرته، بنسخ جميع الوثائق الرسمية الموجودة في أرشيفه الشخصي دون أن ينسى الإشارة إلى النقص الذي اعتقد أنه اكتشفه فيه، أو بهذا الكراس الذي أوضح فيه جندي انكشاري في حامية مصرية في القرن السابع عشر الميلادي، لرفاقه بلغة عربية ركيكة تنظيم وحدته العسكرية، والشعار المستعمل في الاحتفالات التي شارك فيها. ولا ننسى أخيراً اليوميات الضخمة التي حدد فيها الأدباء يومياً كل ما عملوه أو رأوه في ذلك اليوم. وهذه، بوجه عام، طلاسم مخيفة، ووثائق مماثلة تستحق العمل على فك رموزها.

ونسعى بإصرار إلى الإفادة من المصادر الكثيرة والمتنوعة والبنّاءة، والمهمة، لسوء الحظ، التي تمثل الوثائق الأثرية. ويجد الذين يدرسون العصور القديمة أو عصرنا الوسيط من العقلانية فتح ملف تاريخ الآثار في الحقب التي تعود إليها النقوش والنقود والتماثيل والأبنية والصروح الأثرية والأختام والشعارات.. إلخ. هذه النظرة غير مألوفة بعد لدى المستشرقين الذين تخلوا عن دراسة الموجودات الأثرية، بوجه عام، وظلوا أقل ميلاً إلى الاهتمام بالناس، بينما تصرَّف المؤرخون، مع استثناءات

نادرة، كما لو كان التاريخ الإسلامي قد جرى في المجرد والفراغ، ولم يترك له آثاراً مادية. وهذا أمر لا منطقي ومناقض للعلم، وطلاق بين تخصصين يجب أن يتكاتفا بصورة متبادلة، كل منهما يدركه بسهولة. نحن نرد إذاً وبسهولة أن عدد الصروح الأثرية التي يمكن الإفادة منها كبير جداً. وهناك بعض الدول الإسلامية - مثل تونس - لم تنقب عن هذه الصروح والنقوش إلا بصورة سطحية، ومع ذلك لدينا الآلاف العديدة من النقوش (8000 نص منشور) يتصل الكثير منها بالأعمال الرسمية، أو أعيد نسخها حرفياً. فالنقوش هنا ليست سوى عامل مساعد حسب الرأي السائد. وهذا رأي خاطئ. فنحن لا نفتقر إلى استعمال مئات الصور المرسومة على الجدران والمنمنمات (الصور الصغيرة) والخزف والنحاس المحفور أو المرصّع والعاجيات والتماثيل، حيث كان المسلمون، مثل معاصريهم، لديهم مواقف مألوفة في الملبس والأمتعة الضرورية في زمنهم. وعلى من يريد دراسة هذه الوثائق الواعدة بالاكتشافات، لأن بعض ما يمثلها يدخل في المجال التاريخي، وبعضها الآخر يحمل إلينا مؤشرات غير متوقعة. أعرف مثلاً أن رسماً غير مبرر ومنوّر بالألوان يمثل صليبيين من الخارج وبشكل كاريكاتوري، فبالحفاظ على تاريخه ومكانه الأصلي قادنا إلى الاعتراف بأنه كان مستوحى من منظر لخيال الظل (الأراغوز) الذي ظهر في الشرق، ويشمل الدمى الصغيرة. هذا الرسم يشبه تماماً ما كان يعرف لدينا "بصور إبنال image d'Epinal"

الشعبية التي توضح موضوعاً أدبياً شعبياً. وهو يفتح أمامنا آفاقاً جديدة حول جانب قد خضع لدراسة في الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى. أما بالنسبة إلى الصروح الأثرية المعمارية، فهي بنَّاءة؛ لأنها تقدم الإطار والدعم للحياة الاجتماعية، وتضعنا دوماً أمام حيرة الاختيار. ويجب تذكّر أن الحضارة الإسلامية لم تتجدد بعمق في مجالها، كما حدث في حضارتنا، منذ عصر النهضة. وما زالت حية كما كانت في صيغتها في العصور الوسطى، كما تشاهد في مدن الشرق، وليس كما لدينا، أماكن العبادة، والأشياء المهملة التي يمكن أن تعلمنا بأسلوب متماسك عن الأشكال التي يقدمها المجتمع في القرون الماضية، أي كل إطار الحياة الحضرية وآلياتها وتقنيتها، والذي يجب فحصه بعناية. ومنذ عهد قريب، درست حلب، في نهاية يوم لم يختر خصيصاً للمناسبة، حسبت أنه من كل الأبنية التي دخلتها منذ الصباح كان أحدثها البيت الذي سكنته، إنه يعود إلى القرن السابع عشر. كل البيوت الأخرى بنيت قبله بقرون عديدة. ولم أدخل في علم الآثار، أخذت حماماً، وقمت ببعض المشتريات من السوق، وثرثرت في معمل للصابون مع العمال.

هذا التوثيق الأثري الغني سيكون هو الذي سنجري التحقيق معه بالتفصيل، بسبب طابعه الذي لا يطعن فيه. وتاريخ الفن الإسلامي خاضع لتعليم آخر. ولن ننظر إليه من زاوية علم

الجمال. فنحن لن ننظر إليه كموضوع بحد ذاته: موجودات أو صروح، وإنما سنتناوله بحيث نتعلم شيئاً عن الناس الذين بنوه أو صنعوه، وعن استعمالاته. تحت هذا التحفظ سوف نعتبره دوماً بأنه قادر على تزويدنا بمعلومات مؤكدة، وبهذا نعطيه طوعاً الحظوة، كلما أمكن ذلك إلى كل وسائل التوثيق الأخرى، مقتصرين على الطلب من النصوص الإثراء، وتفسير الوقائع من خلال دراسة الصروح المتاحة. وبهذه المجابهة المتواصلة للوثائق الأثرية الأصلية الصامتة، والنصوص الواضحة الخاضعة للحذر، نحلّ العقبة الكأداء التي تعترض مؤرخ الإسلام، وهي غياب وثائق الأرشيف. ولن أصر على ما ذكرته سابقاً اليوم، لأنني أقترح إعطاءكم، منذ هذه السنة، مثالاً تطبيقياً لهذا المنهج الذي سأريكم إياه، آملاً أن يؤدي إلى نتائج مدهشة في الدقة والجدة"[1].

6- الغساسنة والرصافة

"على مسافة خارج الباب الشمالي لمدينة سيرجيوبوليس (الرصافة) ينتصب صرح صغير ما زال محتفظاً بشكله، اتفق على أنه كنيسة. هذا الرأي التقليدي الذي لم يعترض عليه أحد، لي عليه تحفظات خطيرة.

(1) Jean Sauvaget, Comment étudier l'histoire du monde arabe, Leçon d'ouverture lue au Collège de France, le 15 Mars 1946, dans Mémorial Jean Sauvaget, Damas, Institut Français de Damas, 1945, vol. 1, pp. 169- 176.

1. إن المخطط الخاص بهذا البناء يتعارض، بصورة غير حاسمة، مع التنظيم المعطى للكنائس الأخرى في الرصافة: أربع منها مبنية على المخطط البازيليكي المستطيل، والخامسة التي من المحتمل جداً أنها اندمجت مع شهادة القديس سيرجيوس St. Serge؛ إذ بنيت على مخطط مركزي، كما هي العادة، ولكن تم السعي لتقريب هذا النمط من المعابد، بإعطائه طولاً كبيراً ليس من المعتاد وجوده في المعابد من هذا النوع. وعلى أي حال لا يوجد ما يذكّر بالأبعاد المجمعة للكنيسة خارج المدينة على شكل مربع تقريباً. لقد شعرت بصعوبة حل هذه المشكلة. لقد تم الاعتراف بأن هذا البناء كان مجرد كنيسة صغيرة للصلاة على الموتى قرب مقبرة: فرضية تبرر التنظيم والأبعاد المتواضعة للبناء ووجودها على أطراف مقبرة. وبذلك تكون كنيسة الرصافة الموجودة خارج المدينة بناء في موقع كمثال منعزل، استثناءً.

2. اعتراض أخطر، من العبث البحث في الفن المسيحي في سورية كلها عن مخطط كنيسة مماثلة لهذه الكنيسة. لا يوجد سوى واحدة تدعم المقارنة، وهي كنيسة صغيرة Chapelle (مصلى) في مدينة أندرونا Androna في حوران بجنوب سورية. ولكن الفحص الدقيق يدل على الطابع الخاص للتقارب بينهما. غير أن المكان المختار في المخطط للحنية وللقطعتين

المحيطتين بها ليسا متشابهين في الكنيستين. ففي أندرونا احتلت الحنية مساحة أكبر بكثير بالنسبة إلى ضرورات العبادة وكرامة المذبح، مثل باقي المعابد في سورية. أما في الرصافة فلا تحتل الحنية والمذبح إلا مساحة محدودة جداً بالنسبة إلى المساحة الكلية للمبنى. وهو أصغر من القطعتين الجانبيتين المحصور بينهما.

3. في عمق الحنية وعلى إفريز محمّل بزخرفة معمارية مخرّمة يوجد نقش يوناني فوق النافذتين المحوريتين، وتفسيري لهذا النقش أنه ترجمة حرفية لصيغة عربية "لينتصر نصيب المنذر".

في هذا الشعار الذي لا نرى فيه من المسيحية والدين سوى الصليب المنقوش على الحجر يبدو أنه منقول من كنيسة مقبرة أولاً، وخاصة في عمق الحنية التي تتجاوز فوراً المذبح.

هذه الاعتراضات تبدو لنا قوية بما يكفي لإلقاء مزيد من الشك على الرأي السائد حول الغرض من المبنى، فلنستبعده، ولنعد إلى أساس الدراسة المباشرة للمبنى.

المخطط حر وواضح: صالة مربعة يسبقها باب وفي جوفها تجويف في محور لسدة نصف دائرية يحيط بها خلوتان: وإذا كان التشديد مركزاً على هذه السدة بسبب موقعها المحوري

(في مواجهة الباب الرئيسي) وتنظيمها الخاص، فهي لا تحتل على الأقل من المجموع إلا مكاناً محدوداً جداً. والنقطة المهمة هي أنه في الأبعاد النسبية للصالة وداخلها المحوري، أعتقد أنني وجدت مفتاح حل المشكلة.

في الواقع أن سدّة نصف دائرية ليست دوماً حنية بالمعنى المسيحي للكلمة. فقد تعني شيئاً آخر غير المذبح، حتى ولو كانت باتجاه الشرق. فسورية الرومانية استعملتها كثيراً من أجل إشهار تمثال أو شخصية تأخذ رونقاً بهياً حينما توجد منعزلة بدافع معماري لوضعه في عمق البناء وفي محور الصالة: في معابد معينة، هذا هو مكان صورة الإله، وفي المباني العامة هو مكان منبر القضاة. والمحاكم الرومانية القديمة في بلدتي مسمية Mesmiyé وكناثا Canatha أمثلة نموذجية على هذا التنظيم.

هذه الصروح تبدو لي الوحيدة التي من المفيد مقاربتها في مبنى الرصافة. وهي الوحيدة التي تقدم تشابه المخطط الدقيق من أجل استنتاج هذا التماثل بوجود هوية وظيفية للمبنى. والفروق الجوهرية لا توجد إلا في طريقة تغطية الصالة التي تتفق مع نمط البناء المتبنى. كما أن قباب المبنى في الرصافة هي من الضيق بحيث تقارن مع قباب مسمية، وبحيث يمكن اعتبارهما من نمط معماري واحد. والمبنى

البيزنطي لم يكن سوى تحويل للمبنى الروماني في الوظيفة ولأسباب فنية مختلفة.

ولذا يجب الاعتراف بأن الكنيسة المزعومة خارج المدينة في الرصافة ليست سوى نسخة طبق الأصل عن المعابد الرومانية: قاعة الاجتماعات حيث القسم الأكبر من المحل يستهدف التقاء الجمهور، بينما تجلس الشخصية الرئيسية وحدها في نهاية الصالة على المنصة نصف الدائرية.

هذا التفسير الحديث الذي كان يربط هذا المبنى بسلسلة من الصروح لا يدع مجالاً للمصاعب السابقة. فهو يسهل تفسير النقش اليوناني الموجود فوق المنصة؛ لأنه من الغريب وجوده في كنيسة، وإنما من الطبيعي والعادي وجوده في قاعة للاجتماعات كما نفترض. ولم يعد هناك مذبح، وإنما منصة للشخصية التي تعقد الاجتماعات.

وحتى في الحمام الأموي بقصير عمرة (الذي بني بعد قرن ونصف القرن من خرائب الرصافة، لكنه مرتبط بالتقليد القديم الواجب أخذه في الاعتبار) هناك صورة جدارية تمثل الخليفة جالساً على منصة الصالة المعدة للاستراحة. ومخطط بنائه مماثل للقباب المعمارية الرومانية المذكورة سابقاً.

الكنيسة المزعومة خارج مدينة الرصافة، ليست في نهاية

التحليـــل سـوى صالة اجتماعات لشخصية مذكورة في النقش الأمونداروس.

تحت الاسم العائلي لدى المؤلفين البيزنطيين نجد اسم الأمير العربي المنذر بن الحارث بن جبلة من الأسرة الغسانية، زعيم قبائل عربية في سورية في عهد جوستنيان Justinien وخلفائه الأوائل"[1].

7- خطة بناء اللاذقية على البحر

"هدف هذه الدراسة إعادة خطة بناء اللاذقية على البحر، إحدى المراكز الحضرية الرئيسية في سورية اليونانية- الرومانية. لا يعرف أحد حتى الآن إلا قوساً للنصر وأجزاء من رواق بأعمدة كورنثية في المدينة. لقد أتاحت لي مؤخراً الأبحاث التي لا تعنى بالآثار الكلاسيكية التعرف على بعض ملامح المدينة القديمة عبر الوجه المغري للاذقية الإسلامية التي تتربع منذ قرون على موقع الأساس السلوقي الذي حافظ على اسم اللاذقية (لاوديكيا Laodikeia). وإذا كنت قد اعتقدت أن من الواجب نشر هذه الملاحظات، مغامراً هكذا، ليس دون تردد، في مجال غريب عليّ، فلأنني فكرت بالمشاركة من

(1) Jean Sauvaget, Les Ghassanides et Sergiopolis, dans Mémorial Jean Sauvaget, Damas, Institut Français de Damas, 1954, vol. 1, pp. 147- 153.

جانبي المتواضع في ملء الفراغ الأخطر على معرفتنا بالمدن القديمة: بالغياب شبه الكامل للتوثيق المباشر عن المدن التي أنشأها في الشرق خلفاء الإسكندر.

والواقع أن المستعمرات الرومانية الأقل أهمية في بريطانيا أو أفريقيا قد اكتشفت لنا بعض تفاصيلها، بفضل الأعمال المرموقة التي اكتشف بها العديد من المدن الهلنستية في آسيا الصغرى؛ مثل: (برغام Pergame وبريين Priène). والنصوص التي ظهرت بصعوبة مراقبتها وتفسيرها في غياب الوثائق الأثرية التي تؤلف شيئاً قليلاً إزاء المعطيات الوحيدة التي نملكها حول الأسس السلوقية في سورية. وحتى وقت قريب، جاءت الحفريات الكبرى بوعود ونتائج غنية في مواقع إنطاكية وأفامية وقرية كبرى غير معروفة سابقاً هي دورا أوروبا Doura-Europos، وقدم علماء الآثار كل سنة وثائق مهمة جداً. ومع ذلك ما زلنا بعيدين عن الكتابة بصورة مرضية عن تاريخ المدن الهلنستية.

ومحاولة الإعادة التي أقدمها فيما يلي من شأنها أن تساعد في الانطلاق نحو أبحاث جديدة. وهنا تبدو لي أهميتها الرئيسية. وهي قائمة على اكتشاف سطحي بسيط، دون أي اعتماد متين على البقايا الأثرية النادرة وقليلة الأهمية، وتدّعي تقديم أرضية لخطة تقريبية. وأنا لا أخفي الطابع الافتراضي

ولا القيمة المؤقتة، بسبب غياب التقنيات المنتظمة، والرقابة البسيطة على الأعمال الأرضية التي تتيح إتمام وتصحيح المؤشرات (الدلائل) بسرعة وبصورة مؤكدة، التي بدت لي توضح دراسة الموقع.

8- البقايا الأثرية القديمة

كان الجزء الغربي من المدينة الحديثة (إلى الغرب من شارع المدينة الملحقة)، هدفاً لإعمال الرقابة الرومانية منذ بضع سنوات، لم نأخذها في الحسبان في هذه الدراسة، من أجل أن لا نعتمد إلا على الوثائق التي لا يشك في صحتها.

9- شوارع الأعمدة

العناصر الأساسية لإعادة الخطة القديمة هي البقايا الصافية تماماً لأربعة شوارع بأعمدة جانبية.

الأعمدة ـ أ

هناك عمودان وحيدان من الغرانيت منعزلان بطول ثلاثة أمتار، والبعد بينهما ثلاثون متراً، مقامان على الرصيف الجنوبي لشارع فرنسا الذي يجتاز كل المدينة من الغرب إلى الشرق. وعلى بعد (150) متراً نحو الشرق يقوم شارع آخر مماثل للسابق.

والارتفاع القليل لهذين العمودين عن الأرض نحو مترين تقريباً بقطر (50) سنتمتراً. وقد أكدت الحفريات الأثرية اكتشاف مزراب في المكان نفسه، على عمق أربعة أمتار تحت الأرض الحالية، مع بقايا أثرية منها أربعة تيجان أعمدة من الغرانيت بارتفاع (5.30) متراً. وهذه الوثائق تمتد على مسافة (320) متراً.

ويلاحظ أنه عند التقاء شارع فرنسا بشارع آخر، كشفت الحفريات الأثرية عن بقايا أعمدة من الرخام وقاعدة وسط الرصيف الحالي.

الأعمدة ـ ب

على مسافة (107) أمتار إلى الجنوب من الأعمدة الأولى في أحد الشوارع الرئيسية في المدينة المعاصرة انتصب (13) عموداً من الغرانيت مغطاة بالتراب إلى نصف طولها، وتمتد على طول (56) متراً. وتعمل كحاجز يفصل بين محلات السوق. والمسافة التي تفصل بينها هي بانتظام (3.35) أمتار تماماً أو ضعف هذه المسافة. وفقدت خمسة أعمدة يمكن إعادة بنائها في الفراغات بحيث يبلغ مجموعها (18) عموداً.

الأعمدة ـ ج

على بعد (375) متراً إلى الجنوب من الأعمدة السابقة،

وجدت خمسة أعمدة مطمورة إلى نصفها بالتراب، وتمتد على امتداد شارع طوله (220) متراً، في الركن الجنوبي للقوس، واثنان منها قريبان من القوس، وهما من الحجارة الكلسية، والمسافة بين الواحد والآخر (4.20) أمتار تقريباً. أما الأعمدة الثلاثة الباقية فهي من الغرانيت.

الأعمدة ـ د

في شارع ضيق باتجاه شمال- جنوب في الجزء الجنوبي من المدينة توجد ثمانية أعمدة غرانيت داخلة في حيطان البيوت، والمسافة بينها (3.35) أمتار. وتعلو هذه الأعمدة الأرض بثلاثة أمتار، وعمودان منها مكسوران على ارتفاع (50) سنتمتراً من الأرض.

أما الأعمدة الستة الباقية، فهي بحالة جيدة وتشبه مجموعات الأعمدة الثلاث السابقة.

التفسير الوحيد المقبول لهذه البقايا الأثرية المختلفة هو اعتبارها جزءاً من هذه الشوارع بالأعمدة الموجودة عادة في المدن الرومانية في سورية. وهذا يدل على أن المدينة أنشئت وفق خطة معلومة شاملة. والدليل على ذلك التنسيق الواضح بين بقاياها الأثرية القديمة وتوزيعها الطبوغرافي.

هذه الفرضية تم التحقق من صحتها من خلال ما يلي: لو

عدنا إلى خطة المدينة وجذوع الأعمدة (د) يتبين أن البقايا الأثرية الأخرى التي لا يبدو لها أهمية، تنسجم مع الشارع وعلى طوله. وفي موقع محدد تلتقي الأعمدة (ب) وهي خمسة أعمدة كبيرة بحالة جيدة. ثم في الجزء الشمالي يوجد عمودان داخل حيطان المنازل.

ومقابل هذه الأعمدة التي وصفت فيما سبق، توجد جذوع أعمدة من الحجر الكلسي قطر كل منها (1.05) متراً، والمسافة بين الواحد والآخر (3.80) أمتار. ولها تيجان كورنثية. ولا شك أن مجموعة الأعمدة (د) مماثلة في ارتفاعها لمجموعة الأعمدة (ب)، وأنها اتخذت شكل المربع، أو أن هناك برجاً أقيم على ملتقى الشوارع. كما تدل البقايا الأثرية الأخرى على إقامة نصب على رصيف الطريق. والملاحظ أن هذه الأعمدة موزعة بصورة منتظمة على طول (725) متراً، وتمتد على طول شارع كبير، وأن مجموعات الأعمدة (أ) و(ب) و(ج) تدل على موقع ثلاثة شوارع لها رصيف يمتد من الشرق إلى الغرب، وأن مجموعة الأعمدة (د) تدل على شارع برصيف جانبي في اتجاه شمال- جنوب.

10- الميناء

الأصل القديم للميناء الحالي تدل عليه قطع الصخور

الضخمة التي تحمي الحاجز الصخري الجنوبي للأمواج، والبلاطات الضخمة من المرمر وبقايا الرصيف المبني بالبلاط، التي ظلت ظاهرة للعيان حتى البدء بالتوسعة الحديثة.

واليوم بأبعاده المتواضعة، على مستوى المدينة المعاصرة، كان من المؤكد أوسع بكثير خلال العصور القديمة. ونعتقد أن المنخفض الممتد إلى الشرق من الميناء الحالي يدل على الأحواض القديمة التي امتدت إليها الرمال تدريجياً حتى اتصلت بالأرض.

11- الرواق المعمد

غير بعيد عن القوس الاحتفالي تنتظم أربعة أعمدة كورنثية تحمل تيجاناً بين بيوت متداعية لحي بائس، وعمود خامس مكسور ليس بعيداً عن الأرض. والجوانب منها تتيح إعادة البناء بأمان تام لقاعدتين أخريين بين الأخيرة والأولى. هذه هي بقايا الرواق ذي الأعمدة لصرح اقتضى ارتفاع هذه الأعمدة، ومنصته الإشارة إلى أهميته. والهدف منه غير معروف. والدلائل تشير إلى أنه إما معبد أو صرح عام.

12- القوس الاحتفالي

يتألف من قبة حجرية تقوم على أربعة أقواس بقنطرة تقوم على أربعة أعمدة مدعومة بزوايا وكتائف عمودية خارجية تغطي المنظر بأعمدة نصفية داخلة في أركان الواجهتين

الشمالية والجنوبية، أو كتائف مستطيلة في الواجهتين الغربية والشمالية.

وحسب العادة، هذا الصرح مربع الشكل يقوم عند التقاء شارع أعمدة باتجاه شمال- جنوب بشارع أقل أهمية باتجاه شرق- غرب.

هذا التفسير الذي يقوم على الأبعاد المعينة الداخلة في الأوجه المختلفة للقوس (5.75) أمتار في الشمال والجنوب مقابل (4.45) أمتار في الشرق والغرب، ووجود أعمدة على وجهيه الشمالي والجنوبي، يقدم كل الضمانات للتشابه في مخططه مع صروح مماثلة. غير أن هشاشته تبدو فوراً عند التدقيق في البناء"[1].

(1) Jean Sauvaget, Le Plan de Laodicée- sur- Mer, Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas, Année 1934, Tome IV, pp. 81-114, et reproduite par Mémorial Jean Sauvaget, Damas, Institut Français de Damas, 1954, vol. 1, pp. 101-110.

الفصل الثالث

جان سوفاجيه في عيون معاصريه

أشاد المستشرقون الفرنسيون المعاصرون لجان سوفاجيه به، وبما أنجزه من أعمال، وألفه من كتب، وألقاه من دروس ومحاضرات. كما أثنوا على جهوده في دراسة النقوش العربية في بلاد الشام، وفي دراسة الصروح والأبنية الأثرية فيها. وتحدثوا بإعجاب عن منهجه في دراسة تاريخ سورية، وأبرزوا في كتاباتهم عنه ما كان يتمتع به من لطف ودماثة في الخلق، وتعاون مع زملائه ومعاونيه، وجدية في العمل وإخلاص للمهمة التي كلف نفسه بها.

وكان من زملائه الذين امتدحوه علمياً ومسلكياً **ريجيس بلاشير Régis Blachère**[1] الذي أشاد بسلوكه وبإنجازاته العلمية

(1) ريجيس بلاشير: ولد في مونتروج Montrouge، إحدى ضواحي باريس في 1900/6/30، انتقل إلى المغرب مع والديه سنة 1915 حيث أنهى دراسته الثانوية في مدرسة ليوتي في الدار البيضاء. ثم حصل على شهادة ليسانس في اللغة العربية من كلية الآداب في جامعة الجزائر، ونال شهادة الاغريغاسيون Agrégation في تموز/يوليو 1924. =

ومؤلفاته وقال في هذا الصدد "وقد أظهر في دراساته الفطنة والحذر في التحقيق والاستقصاء، والدقة والتردد التي كانت توجهه، والسعة والتنوع في قراءاته ومعلوماته، والجرأة الوازنة في افتراضاته، والمنطق الاستنباطي، وكل هذا تزينه أناقة في الأسلوب التقليدي[1].

أما زميله في المعهد التطبيقي للدراسات العليا وفي معهد فرنسا **لوي روبير Louis Robert**[2] فقد قدم دراسة وافية عنه

= وحصل على الدكتوراه سنة 1936 وكانت عن الشاعر أبي الطيب المتنبي. وخلف ماسيه سنة 1942 مديراً للدراسات في الفلسفة العربية في المعهد التطبيقي للدراسات العليا وبقي فيه حتى سنة 1968. كما شغل كرسي فقه اللغة والأدب العربي في العصر الوسيط في جامعة السوربون سنة 1950 وبقي فيه عشرين سنة. تولى إدارة مجلة "أرابكا Arabica"، التي أسسها ليفي- بروفنسال سنة 1954. توفي في 7/8/ 1973. أهم مؤلفاته "مدخل إلى القرآن" الصادر سنة 1947، و"القرآن" في مجلدين ضخمين (1239) صفحة، و"قضية محمد (ص)"، و"تاريخ الأدب العربي من البداية حتى نهاية القرن الخامس عشر"، وترجمت مجلداته الستة إلى العربية، ونشرتها وزارة الثقافة السورية.

(1) Régis Blachère, Jean Sauvaget (1901- 1950) dans École Pratique des Hautes Études, Section des Sciences historiques et philologiques, Annuaire 1950- 1951, pp. 13-16. Journal Asiatique, vol. 239, Paris, pp. 23- 87.

(2) لوي روبير: ولد في 1904/2/15، درس في ثانوية لويس الكبير بباريس، والتحق بدار المعلمين العالية سنة 1924. تتلمذ على يد العالمين بول فوكار Paul Foucart وموريس هولو Maurice Holleaux. درّس في المعهد التطبيقي للدراسات العليا، ورقي إلى رتبة أستاذ ودرس في=

في الكتاب التكريمي له، تضمنت ثناءً عليه، ورثاءً عاطفياً، وتمجيداً لأعماله الفكرية والأكاديمية ومؤلفاته وجهوده في جمع النقوش العربية، وفي دراسة الآثار الإسلامية[1].

وأثنى عليه المستشرق الفرنسي **هنري لاوست Henri Laoust**[2]، في توطئة المجلد الأول من الكتاب التكريمي لجان سوفاجيه.

= معهد فرنسا بين سنتي 1939 و1974. وعين مديراً للمعهد الفرنسي لآثار إسطنبول، وأصبح عضواً في معهد أثينا الفرنسي École Française d'Athènes، وعضواً في أكاديمية النقوش والآداب وعضواً في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم Académie Américaine des arts et des sciences، وتوفي في باريس في 31 أيار/ مايو 1985.

(1) Louis Robert, Jean Sauvaget 1901- 1950, dans Mémorial Jean Sauvaget, Damas, Institut Français de Damas, 1954, vol. I, pp. XV- XXXV.

(2) ولد هنري لاوست في 1905/4/1، ودرس في ثانوية غورو Lycée Gouraud في الرباط وفي ثانوية لويس الكبير بباريس، وتابع دراساته العليا في دار المعلمين العليا وحصل فيها على شهادة أغريغاسيون Agrégation في اللغة العربية. درّس في قسنطينة بالجزائر. أصبح، بعد ذلك سكرتيراً عاماً ومديراً للمعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق بين سنتي 1937 و 1941، ثم عين أستاذاً في جامعة ليون بين سنتي 1946 و1956، وأستاذاً في معهد فرنسا بين سنتي 1956 و1976، وانتخب عضواً في أكاديمية النقوش والآداب سنة 1974. من مؤلفاته أطروحته لدكتوراه الدولة في الآداب "بحث في آراء ابن تيمية الاجتماعية والسياسية Essai sur les doctrines sociales et politiques d'Ibn Taymia"، نشره المعهد الفرنسي للآثار في القاهرة سنة 1939، وكتاب "الانشقاقات في الإسلام"، وكتاب السياسة عند الغزالي". وتوفي لاوست في 1983/11/12.

وقال عن مؤلفاته وبحوثه "إنها أثرت معرفتنا بالتاريخ السوري وبالحضارة الإسلامية"[1].

أما المستشرق الفرنسي الجنسية الروسي الأصل **نيكيتا ايليسييف Nikita Elisséeff**[2] فقد كتب توطئة لكتاب جان سوفاجيه ترجمة كتاب "كنوز الذهب في تاريخ حلب لسبط بن العجمي Les Trésors d'Or de Sibt Ibn Al-Ajami" الذي أعيد نشره في المجلد الثاني من التكريم التذكاري لجان سوفاجيه. وامتدح إيلسييف هذا الكتاب بقوله: "كنوز الذهب في تاريخ حلب، أحد النصوص المهمة جداً التي لدينا لدراسة تاريخ

---

(1) Henri Laoust, Avant- propos, dans Mémorial Jean Sauvaget, Damas, Institut Français de Damas, 1954, vol. I, pp. IX- XII.

(2) نيكيتا إيليسييف: ولد في بطرسبرغ بروسيا سنة 1915 في أسرة من كبار التجار، وتربى في فرنسا. شارك في مقاومة الاحتلال النازي مع زميله المستشرق الفرنسي روبير مانتران. درس التاريخ الإسلامي وتخصص فيه، وكانت أطروحته لنيل دكتوراه دولة في الآداب بعنوان "نور الدين، أمير مسلم عظيم من سورية في عصر الحروب الصليبية Nur Al-din, un grand prince musulman de Syrie au temps des croisades, 511-569h/ 1118-1174, 1967. Et rééditée en 2014." ومن أهم مؤلفاته "موضوعات ودوافع ألف ليلة وليلة Thèmes et motifs des Mille et Une Muits, 1949. وكتاب "وصف دمشق لابن عساكر La Description de Damas d'Ibn Asakir" وكتاب "الشرق الإسلامي في العصور الوسطى (622-1260) L'Orient musulman au Moyen Age (622- 1260)."

صروح حلب وطبوغرافيتها في أواخر العصر الوسيط. ودون أن يكون له سعة وشمول (زبدة الحلب في تاريخ حلب، لابن العديم)، فإن هذا الكتاب يقدم لنا عن حلب مشهداً دقيقاً للسنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي"[1].

وعبر تلميذه **دومنيك سورديل Dominique Sourdel**[2] وتلميذته **جانين سورديل- تومين Janine Sourdel- Thomine**[3] عن وفائهما لأستاذهما سوفاجيه، بإعداد فهرس تحليلي لأعماله.

---

(1) Nikita Elisséeff, Avant-propos, dans Jean Sauvaget, Les Trésors d'Or de Sibt Ibn Al-Ajami, dans Mémorial Jean Sauvaget, Damas, Institut Français de Damas, 1961, vol. II, pp. V-IX.

(2) دومنيك سورديل: ولد سنة 1921. مؤرخ ومستشرق فرنسي، وأستاذ مميز في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية في جامعة باريس الرابعة (السوربون)، ومدير مجلة دراسات إسلامية، وتولى مع جانين سورديل- تومين إدارة سلسلة كتب إسلامية في المطابع الجامعية بفرنسا. من مؤلفاته "حضارة الإسلام الكلاسيكي La Civilisation de l"Islam Classique, Ed. Arthaud, Paris, 1968" بالاشتراك مع جانين سورديل، وكتاب "الإسلام L'Islam" 1949، وكتاب "تاريخ العرب Histoire des Arabes, P.U.F., Paris, 1976" و"معجم تاريخي للإسلام Dictionnaire historique de l"Islam, P.U.F., Paris, 2004"

(3) جانين سورديل- تومين، ولدت سنة 1925، درست في معهد اللوفر تاريخ الفن واللغة العربية وواصلت دراساتها العليا في معهد اللغات الشرقية الحية التابع لجامعة السوربون. عينت باحثة في المركز الوطني للبحث العلمي بباريس سنة 1950، ثم مديرة دراسات في المعهد التطبيقي للدراسات العليا بين سنتي 1960 و1995.

وقد ذكرا الهدف من عملهما: "أردنا أن نزيل من النسيان ما يمكن أن يقع فيه من ملاحظات تفصيلية لا تحصى، كان قد كتبها جان سوفاجيه في كراسات قصيرة، وتتعلق بدراسة أسماء المواقع أو المعاجم التي تتناول تاريخ المؤسسات أو علم الآثار، المنتشرة بطريقة ما في إرثه العلمي المباشر والذي قام بجمعه عن موضوعات مختلفة جداً"[1].

لعل الوحيد من زملاء جان سوفاجيه الذي انتقد أبحاثه ومؤلفاته وأشار إلى ما في بعضها من نقص هو كلود كاين الذي أشار في مقدمة الطبعة الفرنسية الثانية لكتاب جان سوفاجيه "مدخل إلى تاريخ الشرق الإسلامي Introduction à l'histoire de l'Orient musulman" التي كتبها في شباط/ فبراير 1961، وجاء فيها ما يلي: "وقد اعترف سوفاجيه بأنه وضع كتابه على عجل لكي يسعف الطلاب بكتاب مرجعي، وبأنه قد يعدل بعض آرائه أو يصحح الإطار العام لكتابه فيما بعد، ولو في نطاق ضيق في ضوء خبراته المتزايدة في البحث والتدريس" ولكن وفاته المفاجئة حالت دون ذلك مما دفع كاين إلى القول: "وقد أغراني بقبول مسؤولية هذا التنقيح

(1) Index Analytique de l'Oeuvre de Jean Sauvaget établi par Janine Sourdel-Thomine et Dominique Sourdel, dans Mémorial Jean Sauvaget, Damas, Institut Français de Damas, 1961, vol. II, pp. XV- XVII.

إحساس بالواجب تجاه ذكرى صديق وأستاذ رحل عنا"[1].

أما على الصعيد العربي فقد أشاد صلاح الدين المنجد في كتابه "جان سوفاجيه، رائد التراث العربي" بسوفاجيه وبكتابه "مدخل إلى تاريخ الشرق الإسلامي" الذي ترجم منه الفصلين الثاني والثالث. وجاء في بداية كتاب المنجد تحت عنوان "بيان وتعريف": "ومضيت أجمع المصادر، وأبين شأنها وشأن من ألفها، وأهدي إلى المواضع التي ينبغي العناية بها، أو الرغبة عنها.

وإني لماضٍ في عملي، إذ وقع لي كتاب المستشرق الأستاذ سوفاجيه المسمى "المدخل لتاريخ الشرق الإسلامي" فوجدت فيه علماً واسعاً، ونقداً صائباً، وتحرياً شديداً، ووجدت أنه، رغم وجازته، بعض الأحايين، وإغفاله كثيراً من المصادر العربية، أوسع دليل للمصادر التي ألفها المستشرقون من الألمان والفرنسيين والإنجليز والسويديين والإسبانيين، عن مختلف الموضوعات المتعلقة بالتراث العربي، من وجوهه المتعددة كلها"[2].

ولكن المنجد يأخذ على ما جاء في مصادر (كتب) المستشرقين الواردة في الكتاب من نظرة الاستشراق في موضوعات

---

(1) جان سوفاجيه وكلود كاين، مصادر دراسة التاريخ الإسلامي: دليل ببليوغرافي، ترجمة عبد الستار الحلوجي وعبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، 1998، ص 13.

(2) صلاح الدين المنجد، رائد التراث العربي (جان سوفاجيه)، دار العلم للملايين، بيروت، 1947، ص 3-4.

تتعلق بالدين الإسلامي، والرسول والحديث... وما إلى ذلك قد يشغف بها المجددون، ولا يرضى عنه المحافظون، وهو بعد ذلك يضم في قسميه الثاني والثالث آراء في بعض الكتب، فيها مجاملة، كإطراء مؤلفات لامنس من الإسلام وما يتصل به، في حين أنها لا تستحق شيئاً من ذلك، لإسفافها بالعصبية وعدم التجرد الظاهرين بها"[1].

وقد أشاد بجان سوفاجيه الأديب العراقي علي جواد الطاهر، وأثنى على الكتاب التكريمي لجان سوفاجيه الذي أصدره المعهد الفرنسي بدمشق[2]. وامتدحه الأديب السوري الدكتور سامي الدهان في مقال نشر في مجلة الرسالة سنة 1950[3]. وكتبت الدكتورة كارين صادر، الباحثة اللبنانية في التراث العربي، بحثاً بعنوان "سوفاجيه المستشرق الفرنسي الذي عاش حلم حلب (1901–1950)"، تضمن ثناء على جهوده العلمية، وخلا من أي نقد لمنهجه التاريخي أو فحوى بحوثه ومؤلفاته[4].

---

(1) المرجع نفسه، ص 4- 5.

(2) علي جواد الطاهر، تذكارات جان سوفاجيه، في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 3 (1954- 1955)، ص 199.

(3) سامي الدهان، سيرة عالم، في مجلة الرسالة، العدد 879، أيار، 1950، ص 518.

(4) كارين صادر، جان سوفاجيه، المستشرق الفرنسي الذي عاش حلم حلب (1901- 1950)، مجلة آفاق المعرفة، العدد 508، كانون الثاني 2006، ص 300- 313.

ولعل أول الكتاب العرب الذين نقدوا أبحاث سوفاجيه عن حلب هو الكاتب السوري محمد أسعد طلس الذي ترجم بحث سوفاجيه "دليل الآثار الإسلامية في مدينة حلب Inventaire des monuments musulmans de la Ville d'Alep, dans la Revue des Études Islamiques, t.v (1931), pp. 59-114" ونشرته بعنوان "الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، مديرية الآثار العامة السورية بدمشق سنة 1956"، وأعيد نشره في السنة التالية بعنوان "دليل الآثار الإسلامية في حلب".

وقد علق طلس على ما جاء في بحث سوفاجيه، وأضاف إليه معلومات نسيها أو أهملها المؤلف. وأصلح طلس أخطاء وقع فيها سوفاجيه. ويمكن إيجاز ملاحظات طلس وتصحيحاته على هذا البحث بما يلي:

1- أخذ طلس على سوفاجيه قوله إن حلب قد لمع نجمها أيام الصليبيين والحمدانيين فترة ثم خبا، حيث رفض طلس مزاعم سوفاجيه بازدهار حلب أيام الصليبيين، وأكد أن حلب ظلت مزدهرة في عهد المرداسيين الذين جاؤوا بعد الحمدانيين، واستشهد طلس بما جاء في مقدمة ديوان ابن أبي حصينة، شاعر المرداسيين، الذي حققه طلس ونشره المجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1957.

2- يذكر سوفاجيه أن المدرسة الطرنطائية هي المدرسة الكمالية العديمية التي أنشأها المؤرخ الحلبي كمال الدين عمر بن العديم المتوفى سنة 660هـ/1262م. ويرى طلس أن سوفاجيه قد أخطأ في نسبة المدرسة إلى ابن العديم.

3- المدرسة الرضائية التي يقول سوفاجيه أن عثمان باشا ابن عبد الرحمن باشا هو الذي بناها، بينما يرى طلس، استناداً إلى ما جاء في كتاب الغزي "نهر الذهب في تاريخ حلب" أنها كانت معروفة باسم المدرسة العثمانية[1].

4- ورد في بحث سوفاجيه "بيت عزّالة"، بتشديد الزاي، والصحيح أن اسم غزالة بتخفيف الزاي، وهي أسرة مسيحية حلبية[2].

5- يقول سوفاجيه في بحثه أن الأمير سودون هو باني جامع بنفوسا[3]، والصحيح في رأي طلس، أن

(1) محمد أسعد طلس، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، مديرية الآثار العامة السورية، دمشق، 1956، ص 6 و106- 108 و136.
(2) المرجع نفسه، ص 137.
(3) وقد ذكر محمد أسعد طلس أن الاسم حسب ياقوت في معجم البلدان/ بانقوسا/ بالقاف. المرجع نفسه، ص 166.

الأمير سودون هو باني المراحيض حول الجامع وليس هو بانيه[1].

6- يذكر سوفاجيه أن زاوية الشيخ حيدر تقع في محلة حامد بك بينما يرى طلس أنها محلة محمد بك وليست محلة حامد بك، وتعرف أيضاً بمحلة التكاشرة خارج باب النيرب[2].

7- أضاف طلس إلى ما جاء في بحث سوفاجيه لائحة ثالثة "أحصى فيها الآثار التي أهملها سوفاجيه في حلب، إما لجهله بمواقعها، أو لظنه أن لا قيمة أثرية كبيرة لها، أو لأنها اكتشفت بعد كتابة بحثه"[3].

وانتقد الدكتور محمد حمدي البكري ما جاء في كتاب جان سوفاجيه وريجيس بلاشير "قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها" الذي قام الدكتور محمود المقداد بنقله إلى العربية، ونشرته دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق سنة 1988. وقال عنه أنه "لا يشتمل إلا على قواعد مختصرة، ينقصها أمثلة توضيحية من المخطوطات القديمة،

(1) المرجع نفسه، ص 166 و168.
(2) المرجع نفسه، ص 175.
(3) المرجع نفسه، ص 188.

وقد صرف جزء كبير من هذا الكتاب للعناية بقواعد ترجمة الكتب العربية إلى الفرنسية".

وأخذ إياد خالد الطباع، الباحث السوري، على جان سوفاجيه وريجيس بلاشير ما جاء في كتابهما المشار إليه سابقاً، من "الغياب الطبيعي لعلامات الترقيم، وأنه يسبب إزعاجاً متواصلاً للقارئ، لذا يعمد المرء بعناية فائقة إلى تسهيل قراءة النصوص النثرية وفهمها بتوفير استراحات ذهنية بوضع نقطة حيث يوجد مقطع منطقي في السياق..". ويرى الطباع أن هذه الفقرة "تدل على عدم درايتهما بالمخطوطات، إذ إن علامات الترقيم متوافرة في المخطوطات، حيث كانوا يضعون الدائرة في آخر المقاطع، وعند المقابلة يضعون نقطة فيها، دلالة على المعارضة بأصل آخر أو سماع على ما هو مفصل في كتب مصطلح الحديث.

ويريان أن شواهد الحديث التي يسهل تخريجها بمساعدة معجم فنسنك (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف) لا تحال إلى أي مرجع، وهذا الرأي فيه قصور في تحقيق النص، ومقارنته مع النصوص الواردة في كتبه الأصلية"[1].

(1) إياد خالد الطباع، منهج تحقيق المخطوطات، ومعه كتاب شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام لابن وحشية النبطي، دار الفكر، دمشق، 2003، ص 16.

ولدى قراءتي للمؤلفات العربية التي تناولت الاستشراق والمستشرقين لم أجد فيها نقداً لأبحاث سوفاجيه ومؤلفاته[1].

(1) لم أجد في كتاب إدوارد سعيد "الاستشراق: المعرفة -السلطة- الإنشاء"، ترجمة كمال أبو ديب، الصادر عن مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الرابعة، بيروت، 1995، ولا في ترجمة محمد عناني لكتاب إدوارد سعيد "الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق" (الطبعة المزيدة الصادرة عن دار بنجوين Penguin العالمية سنة 1995) الصادرة عن دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، أي ذكر لجان سوفاجيه. كما لم يتضمن كتاب "مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية" بجزئيه، الصادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، 1985، وكتاب "الاستشراق بين دعاته ومعارضيه"، ترجمة هاشم صالح، الصادر عن دار الساقي، بيروت، سنة 1994، وكتاب محمد الدعمي، "الاستشراق: الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي"، الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، سنة 2006، وكتاب "عصام سخنيني: المستشرقون ومصطلحات التاريخ الإسلامي: تحليل ونقد"، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، 2007، أي ذكر لجان سوفاجيه.

ولكن سوفاجيه ورد في كتاب "محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا"، سلسلة عالم المعرفة، العدد 167، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر/تشرين الثاني 1992، في صفحة (123) باعتباره مديراً للمعهد الفرنسي في القاهرة، وفي صفحة (178) باعتباره مؤلفاً لأطروحة بعنوان حلب بالفرنسية نشرت سنة 1941، فقط.

وورد اسم جان سوفاجيه في كتاب "نجيب العقيقي، المستشرقون: موسوعة في تراث العرب" مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه، =

وربما يعزى ذلك إلى أن سوفاجيه لم يتناول في دراساته وأبحاثه وكتبه الدين الإسلامي، والقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وسيرة النبي محمد (ص)، والخلفاء الراشدين، والنظام السياسي في الإسلام، والنظام الاقتصادي في الإسلام، والنظام الاجتماعي في الإسلام، والفكر الإسلامي، واقتصر على دراسة معالم الحضارة العربية الإسلامية في بلاد الشام.

أما اللذان تناولا بحوث ومؤلفات جان سوفاجيه بالنقد العلمي، وبيّنا نقاط الضعف والنقص فيها، وشككا في بعض النتائج والآراء التي توصل إليها في دراساته عن حلب، فهما المستشرقان الألمانيان هاينتز غاوبه Heinz Gaube، الأستاذ في جامعة إبرهارد كارلز- توبينغن Tuebingen وأويغن فيرت Eugen Wirth في كتابهما "حلب: دراسات تاريخية وجغرافية حول البنية العمرانية والتركيبة الاجتماعية والحركة الاقتصادية لأحد مراكز التجارة الدولية في الشرق الأدنى Aleppo: Historische und geographische Beitrage zur baulichen Gestaltung, zur sozialen Organisation vorderasiatischen Fernhandelsmetropole, Dr. Ludwig Reichert, Wiesbaden, 1984" تعريب وتدقيق

= منذ ألف عام حتى اليوم، ثلاثة أجزاء، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة، سنة 1964 و1965، في الجزء الأول منه في صفحات 266- 269 وهي سيرة حياته، ولا تتضمن أي رأي في مؤلفاته وأبحاثه ومقالاته.

وتحديث صخر علبي، جزءان، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2007.

بدأ الباحثان الألمانيان بالثناء على بحوث سوفاجيه عن حلب ولا سيما أطروحته للدكتوراه "حلب". وقالا عنه أنه عالج "موضوعاً لم يجرؤ أحد قبله على الخوض فيه، سواء أكان يتعلق بحلب أم بأي مدينة أخرى". وأضافا "هذا التصنيف المحدد الواضح من ظاهره هو بحد ذاته عمل عبقري. فقد أعطى المؤلف مرونة إلى حد كبير، كانت بالنظر إلى معلومات المصادر عن بعض المراحل الزمنية مهمة جداً، إلا أنه سمح للمؤلف أيضاً أن يُضمن العمل كل ما تبقى في جعبته من معلومات. وهكذا جاء مؤلف سوفاجيه متضمناً معلومات جمة وكماً هائلاً من أفكار موحية وملهمة طرحت أحياناً بشكل عرضي أو في الهامش فقط، بل اكتفى أحياناً بالتنويه إليها فقط، مما أدى إلى أن جميع الذين اشتغلوا حول حلب بعده خالوا أنفسهم كالأرنب في الأساطير الذي يحاول أن يسبق السلحفاة دون جدوى".

اتفق المستشرقان الألمانيان مع سوفاجيه في كثير من المعلومات والآراء الواردة في أبحاثه وأطروحته عن مدينة حلب[1]. واختلفا معه في العديد من المعلومات والآراء والنتائج.

(1) بلغ عدد أبحاث ودراسات جان سوفاجيه التي أفاد منها الباحثان الألمانيان في دراستهما عن حلب، وتناولاها بالنقد (12) بحثاً ودراسة، كما وردت في الصفحتين 919 و920 من الترجمة العربية لكتابهما "حلب" ج 2.

ويمكن إيجاز هذه المعلومات والآراء ومواضع النقد بما يلي:

1- اعتراف جان سوفاجيه في أطروحته للدكتوراه عن حلب بعدم كمال دراسته هذه بقوله: "لقد أردت نشر هذا البحث للناس حتى ولو كان ناقصاً وغير مكتمل.. إلا أنني أعتقد أن الدراسة التي قمت بها بإمكانها أن تقدم المعلومات المفيدة لمن سيرغب من المؤرخين في متابعة ما بدأت به"[1].

2- أخذ الباحثان الألمانيان على سوفاجيه وعلى عدد من المستشرقين الأوروبيين اعتقادهم الخاطئ بأن "الدولة العثمانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين كانت مضعضعة وضعيفة ومهلهلة وتابعة لأوروبا على نحو متزايد"[2].

3- توقف جان سوفاجيه في أطروحته عند سنة 1245هـ/1831م، بينما كان ينبغي له أن يواصل دراسته حتى القرن العشرين، لما لهذين القرنين التاسع عشر والعشرين من تأثير على مختلف جوانب العمران والحياة الاقتصادية والاجتماعية في حلب[3].

---

(1) غاوبه وفيرث، حلب، الجزء الأول، ص 31.
(2) المرجع نفسه، ص 56.
(3) المرجع نفسه، ص 57.

4- قارن الباحثان الألمانيان بين عمل المستشرق الألماني إرنست هرتسفلد Ernst Herzfeld (1879-1948) الذي سعى إلى وضع موسوعة للنقوش والكتابات العربية القديمة Materiaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum، والذي واصل عمله في حلب حتى سنة 1930، وعمل جان سوفاجيه، وجاء في مقارنتهما هذه: "وإذا كان هرتسفلد قد وضع لنفسه من كشف النقاب عـن أوابـد حلب الأثرية وعن عمارتها هدفاً، فقد عمد ج. سوفاجيه إلى استخدام المصادر المكتوبة والملموسة حتى يتمكن من فهم مستقبل المدينة. لقد كانت مهمة سوفاجيه أصعب من مهمة هرتسفلد إلى حد لا يقارن. فقد كان لزاماً على سوفاجيه أن يتوصل إلى نتيجة، في حين توضعت (تحددت) نتيجة هرتسفلد في صلب عمله. لذلك فإن كتاب سوفاجيه ممتاز بمقدار ما هو إشكالي. أما أنه أصبح إشكالياً فذلك يعزى بشكل خاص إلى أنه كان من المفروض أن يتحول إلى أطروحة أو بالأحرى أن يتمخض عن نظرية تثبتها البراهين العلمية. لقد كان سوفاجيه مرغماً أن يحث الخطى عبر القرون، ومع أنه توفرت لديه مادة علمية وفيرة للدرس والتمحيص والتأمل، تتبدى من حين لآخر في كروكيات ناعمة أو تتجلى في مخططه

البديع للسوق المركزي، إلا أن التعليقات عليها لم تأت كافية على الإطلاق، بل كانت غير مدعمة بالحجج في أغلب الأحيان"[1].

5- أخذ الباحثان الألمانيان اللذان أجريا دراستهما عن حلب بين سنتي 1975 و1979، على سوفاجيه، أن الأشكال والصور من كتابه عن حلب (الشكل 8: اللوحة رقم 65) من المجلد الخاص بالأشكال والصور، لا يمكن اعتبارها توثيقاً أميناً لحالة المباني في فترة الانتداب الفرنسي، وذلك لأن سوفاجيه عمد في أكثر من مكان إلى تمثيل المساقط الأفقية للمباني بالشكل الذي كانت عليه في الأصل دون لحظ الإضافات والتعديلات والإكمالات اللاحقة، ولأنه تمم أيضاً بعض المساقط الأفقية على النحو الذي افترضه مثالياً أو بالشكل الذي اعتقد أنها كانت عليه فيما مضى. أما التوثيق الأمين للوضع الراهن لأهم المنشآت الاقتصادية في السوق فيجسده لنا مخطط (الخانات والأسواق القديمة في حلب) المعد بمقياس 1/500 من قبل السيد سمير عقاد"[2].

(1) المرجع نفسه، ص 64- 65.
(2) المرجع نفسه، ص 98 و101.

6- ينتقد الباحثان الألمانيان ما ذهب إليه سوفاجيه في أبحاثه من أن "جميع السمات المميزة للمدينة الشرقية من الممكن الاستدلال عليها في العصور الكلاسيكية القديمة (اليونانية والرومانية)، بل وذهب في نهاية كتابه عن حلب (ص 247) إلى تحيز مغرض، وضيق نظر مفرط إلى أن الإسلام لم يأت بأي ابتكار أصيل ذي ملامح مميزة". ولكن نظراً لما قدمه ج. سوفاجيه في أطروحته من مساهمات مفيدة للتعرف على جوهر وخصوصية السوق، فعلى المرء أن يسائل نفسه، عما إذا كان ج. سوفاجيه قد عنى حقاً ما قام بتدوينه في نهاية الفصل الأخير المذكور آنفاً عندما يشير إلى "دور الإسلام أهم ما فيه أنه سلبي (ص 248)، أم أنه كان عليه، ربما أن يراعي وجهة النظر العلمية المتحيزة لجامعة باريس، التي كان عليها تقييم كتابه المقدم إليها كأطروحة دكتوراه؟"[1].

7- يأخذ الباحثان الألمانيان على سوفاجيه تأكيده بأن أقدم بناء لمدينة حلب يقع على هضبة في الغرب من المدينة المسورة في حي العقبة الذي يرتفع (21) متراً عما يحيط به، ويريان أن هذه الفرضية لم تعد قائمة، لأن

(1) المرجع نفسه، ص 176- 177.

علماء الآثار لم يقدموا لنا حتى تاريخه أي برهان يثبت توضع (موقع) العقبة على تل فعلاً لها ما يبررها. ويريان أيضاً أن العاملين المحددين لموقع حلب هما نهر قويق الذي كان يفيض أوائل العام، والهضبة الصخرية التي تتربع القلعة فوقها.

8- ويأخذان عليه قوله إن حلب شهدت نهضة عظيمة في العصر الروماني-الهلنستي، وافتراضه أن سلوقس نيكاتور Seleukos Nikator قد أسس ما بين عامي 301 و281 قبل الميلاد إلى جانب التل مستوطنة بيروه Beroia التي طالت جزءاً منه. وليس هناك دليل يثبت ذلك، كما لا وجود لقناة حيلان التي تزود المدينة بالماء. ولا حجة لوجود سور هلنستي للمدينة[1].

9- شكك الباحثان الألمانيان في وجود ضاحية في الجنوب الغربي من مدينة حلب قبل دخول الإسلام إليها. ويريان أن وجود ضاحية في الجنوب الغربي من المدينة يعود إلى الفترة الإسلامية المبكرة على مقربة من باب قنسرين، عاصمة شمال سورية آنذاك[2].

(1) المرجع نفسه، ص 201- 203.
(2) المرجع نفسه، ص 204- 205.

10- ويأخذان على سوفاجيه قوله إن الجامع الكبير في حلب بني مكان الأغورا اليونانية، بينما تؤكد كل المصادر أن موضع الجامع الكبير هو بستان الكنيسة الكبرى في أيام الروم[1].

11- لا يؤيد الباحثان الألمانيان سوفاجيه في كتابه عن حلب في اشتقاق كلمة (أسفريس) عن اللغة اليونانية القديمة من كلمة (بساليس Psalis) التي تعني القبو أو القوس أو قبة السماء مجازاً. ويريان أن الكلمة فارسية وهي (أسب-ريس Asp-res) وتعني سباق الخيل[2].

12- وينتقدان فرضية سوفاجيه الواردة في كتابه عن حلب (ص 16) القائمة على دلالات لغوية، والتي تجزم بأن رقعة المدينة قد اشتملت، في القرنين الرابع والخامس الميلاديين على محلتي بحستا والفرافرة لا تستند إلى أي دليل مادي[3].

13- ويأخذان عليه أيضاً في كتابه عن حلب أنه لم يتطرق

(1) المرجع نفسه، ص 207.
(2) المرجع نفسه، ص 216- 217.
(3) المرجع نفسه، ص 330.

إلى أهمية حلب على صعيد السوق الداخلي للدولة العثمانية إلا على نحو هامشي[1].

14- ويأخذان عليه قوله إن ازدهار حلب بدأ مع العهد العثماني، والواقع أن هذا الازدهار قد سبق العهد العثماني بنصف قرن من الزمن، مع تحول التجارة بين أوروبا وآسيا في القرن الخامس عشر الميلادي باتجاه الجنوب[2].

هذا وقد جاء في بحث للمستشرق الألماني هاينتز غاوبه بعنوان "القصور الأموية في الشام: أصولها واعتباراتها السياسية والاقتصادية" رفضاً لنظرية سوفاجيه القائلة إن القصور الأموية في بادية الشام هي "مراكز المستعمرات أو مستقرات زراعية أراد البناة من خلالها إعمار بلاد الشام الاستغلال الزراعي فيها".

وأكد غاوبه أن هذه القصور كانت ملتقى الخلفاء الأمويين بشيوخ القبائل العربية التي تتردد على البادية الشامية. وأن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كان أول بناة هذه القصور. "وكان يقضي الشتاء على مقربة من بحيرة طبريا، ثم يتحرك إلى

(1) المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص 576.
(2) المرجع نفسه، ص 603.

الجابية. وفي آذار وحتى أيار كان يقيم على مقربة من دمشق. أما شهور السنة الحارة فيقضيها في بعلبك ثم يعود إلى دمشق في الخريف ليغادر العاصمة إلى طبريا خلال الشتاء".

ويسرد غاوبه وصفاً لبعض هذه القصور وبناتها من خلفاء بني أمية: عبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، والوليد الثاني بن يزيد بن الوليد بن عبد الملك. وقد بيّن غاوبه أن لهذه القصور الصحراوية وظيفة هي توفير الاتصال بين الخلفاء الأمويين بشيوخ القبائل العربية (القيسية واليمنية)، وتأمين الراحة للخلفاء وضيوفهم. وهو بهذا الرأي يناقض نظرية سوفاجيه التي عرضها في بحوثه سنة 1939، وأعيد نشرها في كتاب أعده تلميذاه دومنيك سورديل وجانين سورديل-تومين سنة 1967[1].

(1) هاينتز غاوبه، القصور الأموية في الشام: أصولها واعتباراتها السياسية والاقتصادية، في "القصور الأموية في الشام/ مقالات في التاريخ" http/ history in Arabic blogspot.com/2013/10/blog-post,html, 2.3.2019.

الفصل الرابع
ثبت ببليوغرافي مختصر بأهم أعماله

ألف جان سوفاجيه وترجم عشرة كتب، صدرت ثمانية منها في حياته واثنان بعد وفاته، كما بينا في دراستنا هذه لكتبه المنشورة. ونشر اثنين وسبعين بحثاً ومقالاً في المجلات والنشرات العلمية التالية:

- نشرة الدراسات الشرقية الصادرة عن المعهد الفرنسي بدمشق Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas (B.O.D).
- المجلة الآسيوية Journal Asiatique الصادرة في باريس.
- مجلة سورية Syria الصادرة عن المفوضية الفرنسية السامية في بيروت.
- المجلة التاريخية Revue Historique الصادرة في باريس.
- Abstracta Islamica الصادرة في باريس.
- مجلة الفنون الآسيوية Revue de Arts Asiatiques الصادرة في باريس.

- مجلة Ars Islamica الصادرة عن جامعة ميتشغان Michigan.
- نشرة متحف بيروت Bulletin du Musée de Beyrouth.
- مجلة Byzantion الصادرة في باريس وليبج Liège ببلجيكا.
- المجلة الأفريقية La Revue Africaine الصادرة في الجزائر العاصمة.
- المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة Institut Français d'Archéologie du Caire.
- حوليات معهد الدراسات الشرقية في كلية الآداب بجامعة الجزائر Les Annales de l'Institut d'études Orientales de la Faculté des Lettres de l'Université d'Alger.
- مجموعة (سلسلة) التعريف بالإسلام Collection Initiation à l'Islam الصادرة في باريس.
- الدليل السنوي لمعهد فقه اللغة والتاريخ الشرقي والسلافي في بروكسيل Annuaire de l'Institut de philologie et d'histoire Orientale et Slaves, Bruxelles
- منوعات المعهد الفرنسي في دمشق Mélanges de l'Institut Français de Damas.

- منوعات جامعة القديس يوسف ببيروت Mélanges de l'Université Saint- Joseph de Beyrouth.
- منوعات وليم ماركيه Mélanges William Marcais في باريس.
- منوعات هنري غريغوار Mélanges Henri Grégoire في بروكسل.
- الموسوعة الإسلامية التركية Islam Ansiklopedisi.
- مجلة السياسة Nouvelle Série, Politique الصادرة في باريس.
- مجلة Hespéris التي تصدر في الرباط في المغرب.

دارت معظم المقالات والأبحاث التي نشرها جان سوفاجيه في هذه المجلات حول تاريخ بلاد الشام ومعالم الحضارة الإسلامية فيها.

واحتوى كتاب التكريم التذكاري الذي أصدره المعهد الفرنسي بدمشق سنة 1954 قائمة بجميع هذه البحوث والمقالات[1]، وقائمة أخرى بجميع تقاريره التاريخية والأثرية البالغة (75) تقريراً[2].

(1) Articles et ouvrages, dans Mémorial Jean Sauvaget, Damas, Institut Français de Damas, 1954, vol. I, pp. 3-17

(2) Comptes-rendus, Ibid., pp. 19- 31

أما كتبه العشرة المنشورة، فقد تناولناها في الفصل الأول من دراستنا هذه بشيء من الإيجاز وعرضنا محتواها، ولذا لا حاجة لتكرارها هنا، وسنضيف إليها البحوث التي نشرها في المجلات السابقة الذكر، وهي:

- قلعة دمشق La Citadelle de Damas، نشرت في مجلة Syria, tome XI, (1930), pp, 59-90, et 2016-241.
- أوانٍ خزفية سورية ومن بلاد ما بين النهرين في القرن الرابع عشر Poteries Syro-mésopotamiennes du XIV^e Siècle, Documents de Damas, t.1, Paris, 1931.
- مراسيم مملوكية في سورية Décrets Mamelouks de Syrie, Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas, t. II, (1932), pp. 1- 52 et t. III, pp. 1-20.
- فـن العمـارة الإسلامية في سوريا L'Architecture musulmane en Syrie, La Revue des Arts Asiatiques, t. VIII (1934), pp. 421- 480.
- مدونة عن الحصون البحرية في طرابلس Notes sur les défenses de la marine de Tripoli, Le Bulletin du Musée de Beyrouth, t. II (1938), pp. 1-25.
- الثقافة الفرنسية والنهضة العربية La Culture Française et la renaissance arabe, Politique, Nouvelle Série, t. II, Avril 1946, pp. 296-307.

- علم الآثار الإسلامي في فرنسا (من 1939 إلى 1945) L'Archéologie musulmane en France de 1939 à 1945, Ars Islamica, t. XIII- XIV (1948), pp. 150-161
- اقتراحات لإصلاح الطباعة العربية Suggestions pour une réforme de la typographie arabe, La Revue des Etudes Islamiques, 1951, pp. 127- 132

أما المواقع الشبكية (الإنترنت) التي تحتوي على معلومات عن جان سواجيه، فهي التالية حسب تاريخ 2018/12/15:

https://en.wikipedia.org/wiki/Jean Sauvaget
https://fr,wikipedia.org/wiki/Jean Sauvaget
https://www.jstor.org/stable/pdf/4629020.pdf
https://www.persee.fr/doc/ephe_0000_0001_1950_num_1_1_4015
httpx:/www.marefa.org/جان سوفاجيه
https://www.babelio.com/auteur/Jean-Sauvaget/121486
https://www.amazon.com/Jean-Sauvaget...History.../B0012NQP30
www.oxfordreference.com/view/10.../authority.201108031004 4327
https://goodreads.com/author/show/747738.Jean_Sauvaget
www.worldcat.org/title/memorial-jean-sauvaget/oclc/2906292
https://books.google.jo/bookx?isbn=9047412079
https://data.bnf.fr/fr/11923820/jean-sauvaget
https://books.google.jo/bookx?isbn=1351920057
https://books.google.jo/bookx?isbn=0857718819
https://books.google.jo/bookx?isbn=9004217363
https://flickr.com/photoes/68135518@N04